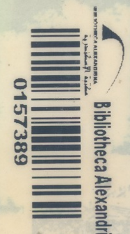
عظماء الشرق

يقدم

فتحي رضوان
عبد الحميد العبادي
محمد فريد أبو حديد
مهدي علام
محمد عبد الهادي أبو ريدة





مختارات الإذاعة

عظماء الشرق

يقدم

فتحي رضوان

عبد الحميد العبادي

محمد فريد أبو حديد

مهدي علام

محمد عبد الهادي أبو ريدة



غاندي

احمد عرابي

مصطفى كامل

محمد فريد

بقلم:

فتحي رضوان

غـــاندى

فى الســـاعة الرابعة والنصف من مســـاء ذلك ليلة ، أو بعـد ذلك بدقائق قليلة ، كان غاندى فى قصر بيرلا ، يتحدث مع السردار باتل نائب رئيس وزراء الهند ، ولكنه قطع حديثه ونظر الى ساعتـــه المدلاة من الشملة القطنية التى يلتحف بها وقال لمحدثه : دعنى أذهب ... ثم أردف : « انها ساعة الصلاة » .

ثم قام ونهض معتمدا على كتفى حفيدتى أخته ، الآنستين آفا ومانو وسار الى المنصة التى اختارها ليشرف منها على جموع المصلين الذين ألفوا أن يشاركوه الصلاة ، ثم صعد فى بطء الدرجات الثلاث المؤدية الى المنصة ، فتقدم اليه شاب قصير ممتلىء يرتدى سراويل رمادية ، وصدارة صوفية (بلوفر) زرقاء وسترة صفراء ، ثم ركع عند قدمى غاندى ، ووجه الخطاب اليه قائلا : لقد تأخرت اليوم عن موعد الصلاة ، فأجاب المهاتما « نعم قد تأخرت » .

ولم يكن هذا الشاب سوى ناثورام فنياك جودس محرر جـــريدة « هندوراشترا » المتطرفة ، التى لم تكف عن اتهام غاندى بخيانة قضية الهندوكيين بتسامحه مع المسلمين ، ولم يكد يتم المهاتما هذه الجمـلة القصيرة حتى انطلقت ثلاث رصاصات ، لا أربعة ، من مسدس برتا صغيرة ، أصابت اثنتان منها بطنه ، والثالثة صدره ، وهتف غاندى «أى رام ! أى رام » ثم سكت ولم يتكلم . ولم يكن رام هذا الذى كان اسمه آخر ماجرى على شفتى هذا الانسان الخالد ، سوى بطل من أبطـــال القصص الدينية ، تقص سيرته كأنموذج رفيع للتضحية وبذل النفس .

وبعد ثمان وعشرين دقيقة ، كانت هذه الروح العظيمة ـ قد انطلقت من أسار البدن ، ولم يبق منها سوى هذا الجسم الصغير الناحل ، الذى احتمل من مشاق الدنيا ، مالم يحتمله أحد فى العصر الذى عشناه وسجى الجثمان الذى كان رمزا على فكرة ومبدأ ، فى شرفة ، وأضيئت الى جانب رأسه ، خمس شمعات تمثل العناصر الخمس : الهواء ، والضوء والماء ، والأرض ، والنار .

وفى لحظات انطلق النبأ ، بلا أسلاك ، ولا تليفونات ، ولا برقيات ، الى الهند بأسرها ، وكان شعور الخجل ، هو أقوى ما استولى على مشاعر الهنود ، ثم العالم بأسره ، ثم جاء فى أثره شعور عميق بالحزن ، وقد قص الصحفيون من أنباء هذا الحزن قصصا لاتنتهى ، وذكروا منها أن عروسين كانا قد تهيآ للزفاف ، فلم يكد يصدمهما النبأ الفاجع ، حتى وقفا مراسيم الزواج ، وذهب كل منهما الى بيته ليشارك الأمة فى حزنها القومى وليشارك الانسانية فى حدادها الانسانى .

لم يكن اغتيال غاندى ، حادثة قتل ، وانما هى جولة من جولات الصراع الطويل الدامى الذى بدأه غاندى منذ سنة ١٨٩١ حينما وطئت أقدامه أرض جنوب أفريقيا ، فرأى مواطنيه يعاملون معاملة البهائم ، ويسامون سوم الخسف ، ورآهم أضعف من أن يدفعوا ظلم هذه الامبراطورية العاتية ... امبراطورية البريطانيين . وقد هدته فطنته ، أن عند الضعفاء سبيلا للمقاومة ، هى مقاومة الروح ، وعدتهم فيها «قوة النفس» أو ماعرف فى حياة غاندى بـ «ساتيا جراها» ، وقوة النفس هذه لاتنبع فى رأى غاندى الا من معين واحد هو « الحب » أى «أهمسا» . فأحبوا أعداءكم ، ولكن اكرهوا أعمالهم ، واصفحوا عن الظالم ، ولكن قاوموا ظلمه . ولا سبيل الى مقاومة ظلمه الا اذا استللتم الخسائم والأحقاد من نفسه ، ووقفتم فى وجه أعماله الظالمة ، فلم تتعاونوا معه ولم تكفوا عن نقدها ، ولم تنقطعوا عن عمل مايضادها ولايتفق معها .

فغاندى حينما صعد الى درجات منصة الصلاة فاعترض سبيله (ناثورام) لم يكن سوى فكرة قد التقت بفكرة مضادة ، ولم تكن احداهما تطيق الأخرى أو ترضى عنها ، أشبه شيء بعدوين يتهدد أحدهما الآخر ، ويطلب اليه أن يزول ، أو يطلب الى الناس أن يزيلوه .

فاصطدما فجأة فى مجاز ضيق ، فأسرع أضيقهما صدرا ، وأخفهما عقلا ، وأسرعهما غضبا ، بالتخلص من الثانى ... كان غاندى يمثل الحب وناثو يمثل العنف ، ولا أدل على أن الشخصين لم يكونا يمثلان سوى هاتين الفكرتين من أن غاندى فتح ذراعيه كأنما يستقبل ضيفا ، أو يصلى ، وأن (ناثو) قال عندما خلصه ضابط من ضباط الطيران الهندى من أيدى الجمهور الذى انهال عليه صفعا وضربا « انه فرح بما فعل » فكلاهما لم يحفل بالمصير الذى انتهى اليه .

كانت وفاة غاندى وفاة رمزية حقا ، ويزيد فى دلالة رمزها ، أن غاندى كان فى الليلة السابقة يرتل نشيدا ذائعا فى بلدة بورباندر التى ولد فيها منذ ٧٩ عاما مضت ، وقد جرى مطلع هذا النشيد : « هذه دنيا غريبة ، فالى متى سألعب فيها لعبة الحياة ؟ » .

وقد قتل غاندى برصاص مسدس ، وقد كان يكره الآلات ، ويلعن الحضارة الأوروبية أو الغربية ويتهمها بأنها بغير قلب ، لأن قلبها من حديد ، وكان يقول أن نكبة الهند ليس اصلها احتلال بريطانيا ، انما أصلها احتلال الحضارة الغربية ، لأن المستعمرين هم ضحايا هذه الحضارة التى تعبد اله الذهب ، ولاتدين الا بالآلة التى تزيد متع الحياة فتزيد الانسان شرها ، فتزيد حياته نصبا وهما .

ولاجدال فى أن هذه الأفكار تصدر أول ماتصدر عن ثقافة غاندى الدينية الهندية ، فقد كانت الهندوكية أساس فلسفته وأساس سياسته ولذلك لم يكن يرضى عن اتهام الهندوكية بالعيب وانما كان يعتبر

الهنود هم المسئولون عن مسخها . فمثلا كان يقول أن دينه لا يأمر بعبادة البقرة ، ولا يحتم أن يغسل المؤمنون وجوههم ببولها ، ويعطروا البيت بروثها كما يفعل الهنود ، وانما يقول أن عبادة البقرة هى (حماية البقرة) وأن البقرة هى رمز على الحيوان الأعجم ، وقد اختارتها الهندوكية عنوانا على الحيوانات لأنها رفيقة الفلاح الهندى تحرث أرضه ، وتمنحه اللبن ، وتحتمل معه عناء الحياة . وقال لتعلمنا حمـــاية البقرة وحب الآدميين ، فان لم تنجح فى غرس بذور الحب فى قلبنا لا كانت حماية البقرة ولا كانت عبادتها .

وكان يقول ان الهندوكية تقسم الناس الى طبقات أربع هى البراهمة وهم العلماء ، والكاشتيريا وهم العسكريون ، والفيشيا وهم التجار ، والشبادورا وهم الصناع اليدويون . ولكنها لاتخلق منهم معســـكرات لتتطاحن على طريقة الماركسيين ، وانما لتتعاون ، ولتعلم الناس أن لكل دورا لايصح معه أحد أن يباهى الآخرين ، وكان ينكر أن المنبوذين وهم الطائفة الدنيا من طائفة الشادورا ـ ويسمون فى النهاية (بالبارياه أو النماشادورا) ـ قد خلقتهم الهندوكية انما خلقهم الجهل بالدين ، ولذلك فقد دافع عنهم وطلب من مواطنيه ألا يعتبروا ظلهم نجســـــا ، ولا أن يحرموا عليهم دخول المعبد أو لمس الأكل أو الظهور فى الطريق ، على أن يبقوا فى الطبقة الرابعة ، ورفض أن يلغى هذه الطبقة لأنها من طبقات الهندوكية والهندوكية مقدسة فى رأيه ، وأن كان يعتقد أيضا بقداسة المسيحية والاسلام وبقداسة الانجيل والقرآن .

ويرجع غاندى الى الطبقة الثالثة ـ أى طبقة (الفيشيا) ـ وهو ينحدر من أسرة بلغ الى منصب رئاسة الوزارة فيها جده ووالده . ولقد إختلف جده مع حاكم الولاية فتركها الى ولاية أخرى حيث ولى رئاسة المنصب نفسه وأصبح كبير الوزراء ، وقد لاحظ أمير الولاية الجديد انه لايحييه بيده اليمنى فسأله عن سر هذه التحية فقال ـ ان يدى اليمنى

وقف على أميرى الأول ، فمهما اختلفت معه ، فان قلبى لايعرف الخيانة ولا يخلو من الوفاء ٠

وقد كان والد غاندى رجلا دنيويا تزوج أربع زوجات ، ماتت الواحدة منهن بعد الأخرى ، وقد كان غاندى هو الابن الثالث لوالده ، واسم غاندى يدل على أصل أسرته اذ أن معناه « البقال » فهو من أسرة كانت تتجر ، وأحسنت تدبير المال ٠

وقد كانت حياة غاندى منذ البداية طريفة وملفتة للنظر فقد خطب ثلاث زوجات وهو دون الثالثة عشرة من عمره ، ولكن الموت كان يسبقه دائما ، فيخطف منه خطيباته ، ولم يدع له سوى الأخيرة « كاستوربى » التى عاشت معه دهرا ، ولم تتخل عنه الا قبيل وفاته بسنوات قليلة اذ توفاها الله فى سنة ١٩٤٤ حينما كانا معتقلين معا خلال الحرب العالمية الأخيرة ٠

ولعل أكثر الناس لايعلمون أن غاندى اذا لم يكن من الخالدين بين رجال السياسة أو دعاة الحرية ، فهو من الخالدين بين الكتاب ، ولعلهم لايعرفون أيضا أن عالم الأدب والفكر لم يسجل لرجل شجاعته فى الكشف عن حياته ، ورفع الأستار عن خفاياها وخباياها ، واستخلاص العظات منها مثلما سجل لغاندى ، ولأستاذيه اللذين أخذ عنهما وتأثر بهما وهما روسو (الفرنسى) وتلستوى (الروسى) ٠ لقد وضع غاندى ترجمة لحياته ، بعنوان « تجاربى مع الحقيقة » وسرد فيها سقطات شبابه وأعلن فيها كيف أذلته شهوات البدن فى مطلع عمره ، وكيف صرفته عن تعرف الحق ، وقد كان يعود الى الندم مرة بعد أخرى كلما لاحظ أن زوجته لم تنل حظا من التثقيف ، وكلما تذكر أنه لولا أن شهوات الجسم قد استغرقته ، لانصرف الى تثقيف عقلها ، غير أنه لم يلبث حتى جعل من زوجته صديقة وشقيقة ، وعاشا منذ سنة ١٩٠٩ كصديقين ٠

إن قصة كفاح غاندى فى جنوب افريقيا وفى الهند قصة تطول ، فلا يتسع المجال لسردها ، ولكن يمكن تلخيصها فى كلمتين : العمل والنضال

فان غاندى حينما رأى اخوانه فى جنوب أفريقيا يتقلبون بين يدى المهانة ، ترك مكتبه وكان يدر عليه ربحا قدره الكتاب الأمريكيون ب ٢٠ ألفا من الريالات كل عام ، وأقام مزرعتين علم فيهما الهنود النظام والتنظيم وانكار الذات ٠

ولقد استطاع بحركته السلمية أن يربك الحكومة الامبراطورية ، حتى اضطر جان كريستيان وكان وزيرا فى جنوب افريقيا الى أن يقصد غاندى فى السجن سنة ١٩١٤ وان يعقد معه صلحا ليرفع به قليلا من عذاب الهنود ، فلما عاد الى الهند وأراد أن يعاون فى شؤونها القومية نصح له (خوكهال) وكان أحد الزعماء القدماء ألا يزج بنفسه فى سياسة بلاده قبل أن يدرسها ، فطاف القرى والمدن ، واستمع الى الناس وخطب فيهم ، ولم يلبث أن أنخرط فى عضوية مؤتمر كل الهند ، فاحاله الى هيئة سياسية بعد أن كان هيئة اصلاح يغلب عليها الطابع الانكليزى وقد كان المؤتمر بالفعل مؤسسة انجليزية لان الذى دعا الى تأسيسه رجل انكليزى يدعى (آلان اوكتافيان هيوم) ٠ ومنذ اشتغل غاندى بسياسة بلاده ، وهو روح هذه السياسة ـ وروح كل حركة فيها ، حتى الحركات التى كانت تتنكر له كانت تتأثر به ، وتدير تفكيرها على أساس من الاعتراف بقوته ٠٠

لم يكف غاندى عن الصوم ، كل يوم اثنين ، ولم ينقطع عن اصدار جريدته الاسبوعية هاريجان (أى ابناء الله) ، ولم يتخلف عن الرد على بريده الضخم ، ولا عن استقبال الضيوف من كل فج ٠٠ فلتكن هذه الصورة الفياضة بالحركة ، نبراسا يهتدى به الشبان الذين يريدون أن يخدموا أوطانهم ٠٠ فليفكروا ، فاذا ما بدأوا يعملون ، واصلوا العمل حتى النهاية ٠

أحمد عرابى

وعدت أن أتحدث اليك الليلة ، عن أحمد عرابى ، وهأنذا أفى بالوعد ، ولكننى أرجوك ألا تتوقع منى أن أجلى لك جوانب الثورة العرابية ، أو أن أتحرى معك بواعثها ودواعيها ، فهذا كلام سمعته مرارا ، وقرأته كثيرا ، وهو فى متناولك ، كلما شئت منه مزيدا ، انما أحاول الليلة أن أبعث لك بخواطر متناثرة ، توحى بها هذه الثورة وهى خواطر تبرز النواحى الروحية ، للثورة العرابية ، وتؤكد صلة تلك الثورة بثورة آبائنا فى عهد المماليك وقبيل تولى محمد على الملك .

قلت لك أن محمد على حاول أن ينشىء جيشا من أبناء المماليك . والضباط الارناءود الذين جاءوا معه ، وقلت لك أن هذه المحاولة لم تفلح ، فقد كان المماليك ، قوم سلب ونهب ، لاقوم حرب وقتال ، وكان النظام ثقيلا على أنفسهم ... فاضطر محمد على اضطرارا الى أن ينشىء جيشا من أبناء مصر الفلاحين ، فعل ذلك وهو كاره ، كره أن يكون الجيش من أبناء مصر ، لأنه لم يكن يتصور أنهم يليقون بهذا الشرف أو أنهم يقوون على احتمال تبعاته ومتاعبه ، ولأنه لم يكن يود أن ينشىء من مصر دولة لابنائها ، بل كان أقصى مايتمناه أن ينشىء فى مصر دولة له ولأبنائه ، وهكذا أصبح فى مصر ، جيش مصرى ، فكتب لنفسه صفحة تزاحمت فيها المفاخر اكثر مما تزاحمت فى صفحة أى جيش آخر ، فلقد حارب المصريون فى كل جو وفى كل ظرف ، حاربوا فى الصحارى ، وفى الجليد ، وعلى ضفاف الأنهار ،

وعلى شواطىء البحار وفى سفوح الجبال وفوق قممها ، حاربوا فى العالم القديم والحديث فى أوروبا وآسيا ، وأفريقيا وأمريكا ، حاربوا عند خط الاستواء وفى الحبشة ، وفى المكسيك حيث تتلظى الحرارة ، وحاربوا فى صحراء السودان ، وفى صحراء الحجاز ونجد ، كما قاتلوا فى القرم ، وفى نزيب ، حيث تتجمد الأطراف ، ويأكل البرد لحم البشر ، وقاتلوا تحت أسوار عكا بالشام ، وفى مياه نفارين باليونان .

ولكن لم يكن دور الفلاح ، ابن مصر ، فى هذا الجيش ليزيد عن دور الجندى التابع ، فقد خاف محمد على أن يصل المصرى الى مركز القيادة ، أو مايدانيها ، لأنه لو اقترب من تلك المكانة ، فقد كملت شخصيته واستيقظت فى نفسه رواسب القيادة والزعامة التى ورثها عن اجداده واجداد الانسانية ، وانتفض عملاقا لاترد له كلمة ، واحاطته صنوف المجد بهالاتها الكبرى ، شرق الجيش المصرى ، وغرب ، وغزى وفتح ، وأعان حيث تعز المعونة ، وأبلى حيث فر المقاتلون المحترفون ، ولكن التاريخ لم يجد على الفلاح الذى تكون منه هذا الجيش ، وتغذى من لحمه ودمه ، بحرف واحد ، وانى لأسائل المؤرخين المحققين ، منصفيهم وظالميهم أن يذكروا لنا اسم مصرى واحد فى هذه المعارك الكبرى التى خاضها المصريون وحدهم .

وقد بقى الحال على هذا المنوال ، فى عهد ابراهيم وعباس ، ثم وافى عهد سعيد ، ولقى من اسرته عنتا ، وكانت تركيا ، تضيق عليه الخناق ، فلم يجد من يحميه ، الا هذا الفلاح المصرى المهجور المفترى عليه ، والانصاف يقتضينى أن أعلن أن سعيدا ، فعل للفلاح المصرى أكثر مما فعل كل ولاة مصر ، بل أكثر مما يفعل بعض رؤساء حكوماتها من الفلاحين ، لقد فتح باب الترقى لأبناء الفلاحين فى الجيش ، وسوى فى الخدمة العسكرية بين أبناء الفقراء وبين أبناء العمد والمشايخ الذين كانوا يدلون على الناس بأنهم أكبر من أن

يؤدوا فريضة الخدمة العسكرية ، أو هم فى الحقيقة أصغر فى ذلك الحين من أن ينالوا شرفها .

ولقد تحقق كل ما خمنه ، وتوجس منه محمد على ، فما كاد باب الترقى للفلاحين يفتح ، حتى دخل منه الى المجد ، أحمد عرابى ، ومعه جماعة من أبناء الفلاحين أمثال ، عبد العال حلمي وعلى فهمى ، والروبى ومحمود فهمى .

فوصول أحمد عرابى الى رتبة القائمقام فى الجيش ، كان فى الواقع وصولا للشعب المصرى كله الى هذه الرتبة ، فقد كان الشعب المصرى بأسره ، فى مجال الحوادث الدولية ، وفى مجال السياسة الداخلية (نفرا) يتحرك ولا يحرك ، يسمع ويرى ، ويحس ويتألم ، ولكن لا يتكلم ، بيد أنه مع مر الأيام أخذ يفرض نفسه على الحوادث ، وعلى الناس ، وعلى الحكام ، فارتقى حتى كان فى رتبة الباشجاويش فى عهد سعيد ، ومن ثم بدأ يصعد سلم الترقى فى كادر الضباط .

وصل عرابى الى رتبة القائمقام ، وكان الشعب المصرى كله قد وصل الى هذه الرتبة ، فقد أخذ الاستعمار والصهيونية العالمية تصفع الخديو اسماعيل ، صفعات ، لا تأديبا له ، فقد كان الخديو اسماعيل ، أحسن ماجاد به الزمن ، على العصبة المتآمرة ، على مصر وعلى العرب وعلى المسلمين ، بل خوفا من ان يتجه اسماعيل الى الشعب ، وكان لابد لاسماعيل فى هذه المحنة من سند ، فكان السند هو الشعب .

فعرابى فى الجيش كان فى الواقع رمزا على الفلاح فى الدولة وسواء أكان عرابى قد اتجه الى تزعم الثورة وقيادتها ، أم لم يتجه ، فقد كان واخوانه ، عنوان طبقة من طبقات الامة المصرية ، وقد كان من المحتم أن يحس عرابى وإخوانه ، انهم غرباء فى الجيش وانهم وصلوا

الى هذه المكانة على الرغم من ارادة أصحاب الأمر والنهى ولما توالت الاهانات عليهم تحرك فيهم شعور بحق الجماعة التى يمثلونها ، وفى هذا يقول أحد الكتاب الانجليز الذين شهدوا حوادث الثورة العرابية من مقدماتها :

« وكان ممن تزعموا التذمر ضد حركة الفريق الطبقى ، فى الجيش أحمد بك عرابى ، الذى كان قد بلغ مرتبة القائمقام ، وهى مرتبة لم يكن من المألوف أن يتولاها فلاح ، مما أكسبه نفوذا ، وتأثيرا غير عاديين على مواطنيه من الناطقين بالعربية ، وكان الدفاع عن حقوق الفلاح هو الميزة التى تفرد بها عرابى بين دعاة الاصلاح فى أيامه ، اذ كانت حركة الازهر حركة عالمية دون تميز بين العناصر ... أما عرابى فكانت حركته عنصرية من أصلها ، ومن ثم فهى أكثر اصطباغا بالصبغة القومية .

والواقع أن عرابى كان يمثل الفلاح المصرى أتم تمثيل ، وكان هذا النوع من الرجال موضع اهمال تام لدى الباشوات من أتراك وشراكسة .

اذا ظلوا أجيالا يسترقونه ، ويسخرونه ، فلم يكونوا ينظرون اليه كأكثر من اداة يستعملونها لمصلحتهم ، وكان رياض (يقصد رياض باشا رئيس الوزراء فى ذلك العهد) من البداية حتى النهاية يزدرى عرابى ، بل أن دعاة الاصلاح فى الازهر لم يكونوا يقيمون له كبير وزن كقوة سياسية ، أما أبناء طبقته من الفلاحين ، فقد رأوا فيه واحدا منهم تضخمت فيه صفتهم وجدير بنا ان نتذكر أن التاريخ المصرى ظل زهاء ثلاثمائة سنة على الاقل لم يشهد فلاحا قحا يرقى الى مركز ذى أهمية سياسية تذكر ، أو يتألق كمصلح أو يجسر على أن يهمس بأية كلمة عن احتمال القيام بثورة » .

فالثورة العرابية ليست ثورة دستورية كما كنا نحاول أحيانا أن نسميها أو ثورة ضباط يطلبون انصافهم فى الترقيات والعلاوات أو فى درجة الأعمال التى توكل اليهم ، وليست هى حركة تحرير وطنى ، ولكنها شيء أعمق من ذلك ، هى حركة أهل الوطن الأصلاء الصميمين ، هى حركة المصرى الذى عاش حياته أشبه شيء بالحيوان وأحيانا أقل درجة منه • هى حركة الفلاح الذى كان أقرب مايكون الى المحراث والساقية والشادوف والنورج يعمل كثيرا أو قليلا ، يعمل بأمانة ، أو فى جو ملؤه الخوف والخديعة والرغبة فى الانتقام ولكنه على أية حال لا يعبر عن نفسه ، ولذلك كان فنه شكوى غير صريحة ، سواء أكان هذا الفن غناء أم موسيقى ، أم أدبا يجرى على الألسن كشعر أو موال أو زجل •

وقد كان الحكام الذين وضعوا الفلاح فى هذا الموضع ، غاية فى الذكاء وآية فى بعد النظر ، لأنه على هوان مظهره ، وسوء شكله وضعف صحته وقلة حيلته ، مخزن هائل ملء بالمتفجرات والمدمرات حسبه عود ثقاب واحد ، لينفجر ، وهو حين ينفجر ، يصل الى آخر الشوط فى خطوة • ولا أعنى هنا بالانفجار ، الثورة وانما العمل ، سواء أكان عملا حربيا أم سلميا ، فالمصرى الذى كان يفر من الجيش هو المصرى الذى هزم جيش تركيا ، أقوى جيش فى أوروبا ، فى ذلك الحين ، والمصرى الذى لا يطيق أن يسير بموكب فى البحر لبضع ساعات ، هو المصرى الذى صنع أسطولا ، جعل الانجليز والفرنسيين يجتمعون عليه بأساطيلهم ، فى نفارين ، لأن أسطولا واحدا لا يكفى لمنازلته • .

واذا أردت دليلا على أن المصرى يثب من الحضيض الى القمة دفعه واحدة فانظر ماذا فعلت فيه حرب الحبشة التى أعلنها الخديو اسماعيل فى أخريات أيام حكمه • فلقد احتمل المصرى الكثير ، احتمل السخرة ، واحتمل نظام الالزام الذى كان يسرق من الفلاح

ماشيته ورزقه ومحاصيله . ولكنه حينما فكت قيوده لم يعد يطيق عشر معشار ماكان يألفه ويقول بلنت في ذلك :

« وكان تدخل الجيش فى شتاء ١٨٨٠ كقوة سياسية فى مصر ، من أهم الأمور .. ويرجع ظهور الجيش كعامل من عوامل التذمر ، الى الحملة المصرية على الحبشة ، اذ أنها هدمت مكانة الخديو ... كما أن المتاعب المالية أدت الى تخفيض مرتبات الجنود وعدم انتظام دفعها .. ولم يعد الجنود الذين قدر لهم أن يعودوا من الحملة ، يحترمون قادتهم بعد أن ظهر عدم جدارتهم .. كما قرب التذمر من القادة بين الجنود وبين ضباط الصف لا سيما وقد كانت المناصب الرفيعة وقفا على الشراكسة الذين لا يجيدون غير اللغة التركية ، فى حين أن مراكز الجنود وصغار الضباط كانت مخصصة لأبناء الفلاحين ممن لا يكتبون سوى العربية .. وزاد من الشعور بالفوارق ان تأخر المرتبات كان مقصورا على هؤلاء الأخيرين دون والشراكسة » ..

فواعجبا .. المصريون لا يطيقون تأخر صرف مرتباتهم .. وقد احتملوا فى الماضى أكثر من ذلك أضعافا مضاعفة .. بل ان عرابى اصطدم بوزير الحربية أول ما اصطدم ، لأن (عرابيا) رفض أن يعمل جنود لوائه فى حفر ترعة التوفيقية ..

ألم أقل ، ان حركة عرابى ، لم تكن حركة الجيش المصرى ، لم تكن ثورة ، ولم تكن انقلابا ، ولم تكن نهضة .. انما كانت حركة من حركات الطبيعة كانتقال الشموس فى أبراج السماء .. حركة ارتفاع بطيئة ، ولكنها مستمرة ، خفية ، ولكنها فعالة ومؤثرة ... حركة انتقال الشعب المصرى الى مكانه اللائق .

مصطفى كامل

قبل أن يقع الاحتلال البريطاني لمصر فى سبتمبر سنة ١٨٨٢ بثمانية أعوام ولد فى حى متواضع من أحياء القاهرة ، لضابط مهندس ، ولد غلام كان ميلاده هو الوجه الآخر لحالة مصر ، فى الحقبة الأخيرة من القرن التاسع عشر ، والسنين الأولى من القرن العشرين .

والحق أن الانسان ليتصور ، وهو يقرأ تاريخ مصطفى كامل ، أنه كان على موعد مع الاحتلال البريطانى ، فانه ماكاد يبلغ سن الشباب المبكر ، سن الخيال المشبوب والاحساس المرهف ، والايمان بالمثل ، والتجرد عن المصلحة ، حتى وقع الاحتلال ولا نحسب أن مصطفى كامل كان قادرا أن يسلك فى مناجزة الاحتلال ، ومقاومته واثارة الناس عليه والتغنى بمصر ، وجمالها ، وتاريخها ، والتشبب بمفاتنها ومفاخرها المسلك الذى اختاره ، لو أن مصر نكبت بالاحتلال وهو فى فترة متأخرة عن السن التى بلغها حينما وافت سنة ١٨٨٢ ولقد كانت مصر فى أشد الحاجة الى شاب ، ليوقظ فيها شبابها ، فقد كان كل شىء فيها ، عندما وقع ذلك الاحتلال البغيض غارقا فى القدم متحللا تحلل الشيخوخة والهرم . كانت الأمور والعقائد والأفكار والأساليب والأدوات كلها متخلفة عن الزمن ، تخلفا ، لا ينفع فى رد الأحداث ، أو فى تخفيف وقعها ، وكانت الحضارة التى تغزو مصر وتغزو معها الشرق العربى ، حديثة غاية الحداثة ، فانه لم يكن قد انقضى على تسخير السخار ، فى بناء هذه الحضارة الا ستون لم تبلغ نصف قرن ، ولم تكن الكهرباء ، ومنتجاتها قد عرفت بعد ، أو عرفت

على نطاق واسع ، ومن هنا ، كانت حضارة فى طور صباها ، فلم تلق الا قدما متداعيا ، وماضيا ، متلكئا ، فان لم تسق الأقدار مصطفى كامل ، لكانت الكفتان غير متكافئتين اطلاقا ، ولكن مصر ، التى كانت تعيش أكثر حياتها على مدى السنين على ما يشبه المعجزات ، وخوارق الأمور ، لم تخرج عن سننها المألوف فأخرجت فى الوقت المناسب مصطفى كامل ، ولا يعرف قدر مصطفى كامل على حقيقته الا اذا علمنا أنه منذ اللحظة الأولى ، عرف ماذا يطلب من بلاده ، وماذا يطلب من أعدائها الغاصبين ٠

فقد طلب من الانجليز الجلاء ، وطلب من أهل وطنه أن يثقوا أن هذا الجلاء واقع لا محالة ٠

وقد يقول قائل ، وأى غرابة فى أن يطلب الزعيم من أعداء الوطن ، أن يجلوا ، والحق أنه لا غرابة فى أن نتصور اليوم ، أى بعد اثنين وسبعين عاما من وقوع الاحتلال أن الشىء الطبيعى الذى لا يتصور غيره ، أن يطلب أبناء الوطن المعتدى عليه من عدو بلادهم المعتدى أن يترك لهم وطنهم ، ولكن للاحتلال والهزائم عموما صدمة تذهل لها الشعوب ، فتضطرب ويسوء فعلها كما يسوء قولها ، وتقع فيما لاتقره أو ترضاه حينما تثوب الى عقلها ٠

وقد حدث بالفعل ، أن نظر كثير من الناس أول الأمر ، الى دعوة مصطفى كامل كما ينظرون الى من فقد بعض عقله ٠ وانى لأذكر أن المرحوم عبد العزيز فهمى باشا قال بعد وفاة مصطفى بأكثر من أربعين عاما ، وبعد أن غلبت الروح الوطنية على الأمة ، فى غير ما تحرج ولا تأثم ، انه قابل مصطفى كامل على محطة حلوان فى ذات يوم ، فدعاه مصطفى الى الانضمام الى الحزب الوطنى ، أو الى جماعة الوطنيين فقال له عبد العزيز باشا : ابعد عنى ٠٠٠ الله يحنن عليك ٠٠

وقد أردف هــذا باشارة من يــده ، وأخرى من عينيه ، معناها ؛ أن عقل صاحبنا كان خفيفا ٠

ولقد بقى هؤلاء العقلاء ، خصوما للحركة الوطنية لا عن خيانة وانما عن نقص فى الخيال ، وفى الحرارة ، واختلال فى غريزة الكفاح عندهم وقــد كان من الممكن أن يتقدم أحدهم صفوف الحركة الوطنية ، فى أعقاب الاحتلال البريطانى ، فيبتلى الوطن بأكثر من الاحتلال نفسه ٠

وقد كان مصطفى كامل فى رأى خصومه ، خياليا ، متطرفا ، وقد كان هذا عين ماتحتاج اليه مصر ، بعد صدمة الاحتلال البريطانى ، فقد أعانه خياله على أن يرى مصر ، بعد سنين طويلة ٠ ولو لم يمتد نظره ، الى مصر فى المستقبل البعيد ، لما استطاع أن يدعو أحدا الى المقاومة ، ولما لبى دعوته أحد ٠ فقد كانت الديون قد بلغت فى ارهاق الفلاحين وأصحاب الأطيان الى حد لم يكونوا قادرين بعده ، أن يفكروا فى مقاومة ، أو نضال ، خصوصا بعد أن أضيف الى هــــذا الارهاق خيبة الامل الناجمة من هزيمة التل الكبير ، وقد كان الجميـع فى حاجة الى فترة من الاستجمام ٠

ولا يظنن أحد الظنــون بالمعنــوية المصرية ، فيــزعم أن الشعب المصرى ، انفــرد وحده ، دون غيره من الشعوب باليأس والاستسلام عقب الهزائم ، فالشعب الارلندى بعد أن قام فى ثورة مسلحة ضــد الانجليز فى أواسط القرن التاسع عشر ، كــره كل من يدعــوه الى المقاومة ولذلك اضطر زعماء الشــين فين فى القـــرن العشرين الى التحايل للوصول الى قلب الشعب ، فبدأوا حركتهم بالدعوة الى بعث اللغة الارلندية التى اندثرت ، والآداب الوطنية ، التى طمرت ، والى تجديد الغناء القومى ، والرياضة القومية ، وقد اجتمع الوطنيون أول ما اجتمعوا فى أندية الرياضة ، ومدارس اللغة القومية ، وفى حفلات التمثيل قبل أن يجتمعوا فى ساحات التدريب العسكرى وقد تعارف

المجاهدون الشبان ، كرواد للأدب الاندى ، وكأبطال فى الرياضة البدنية قبل أن يتعارفوا كجنود وكمقاتلين .

ولقد وصل مصطفى كامل الى قلب الشعب المصرى ، من أيسر السبل ، وهو سبيل الحديث عن الماضى ، والتغنى بجلائله ومفاخره ، فان المصرى شديد الحب لماضيه وشديد الحماسة له ، عظيم الاقبال على الحديث عنه ، وقد عززهذا بالتغنى بجمال مصر ، وفى المصريين ميل الى هذا الحديث ، لأن عامتهم قبل خاصتهم ، يتناقلون عبارات كجوامع الكلم فعامتهم يقولون « ان مصر أم الدنيا » وخاصتهم يقولون « مصر كنانة الله فى أرضه » .

ولقد كان أسلوب مصطفى كامل آية فى السهولة ، واليسر ، خاليا من المحسنات اللفظية ، ومن الجمل الاعتراضية ، ومن الأفكار العميقة ، تسوده حماسة متدافقة ، تربط ألفاظه ومعانيه ، بقلب الانسان قبل عقله ، خذ مثلا هذه القطعة عن مصر :

« ألا أيها اللائمون أنظروها وتأملوها وطوفوها واقرأوا صحف ماضيها ، واسألوا الزائرين لها من أطراف الأرض ، هل خلق الله وطنا أعلى مقاما وأسمى شأنا ، وأجمل طبيعة وأجل آثارا وأغنى تربة وأصفى سماء وأعذب ماء وأدعى للحب والشغف من هذا الوطن العزيز ؟

اسألوا العالم يجبكم بصوت واحد أن مصر جنة الدنيا وان شعبا يسكنها ويتوارثها لأكرم الشعوب اذا عزها ، وأكبرها جناية عليها وعلى نفسه اذا تسامح فى حقها وسلم أزمتها للأجنبى .

انى لو لم أولد مصريا ، لوددت أن أكون مصريا » .

ولقد جرت هذه الفقرة الأخيرة على الألسن ، وحفرت فى الأذهان وأصبحت شعارا ذائعا وهى احدى العبارات التى قصد مصطفى كامل

بها ، الى تحقيق غرضين الأول ، الاعجاب بمصر ، والثانى الثقة بمستقبلها ٠

ولقد اشتدت حملته ، بنفس الأسلوب على الناس ، فصور للأمل صورا جميلة أخاذة ، وصور للناس ، صورا دميمة كالحة ٠

فقال :

« ان فى مصر فئة من الناس نسيت أن الأمل داعى العمل ، فلبست ثياب اليأس وقضت بظنونها على مستقبل الوطن ، وجعلت مهمتها فى الأمة تثبيط الهمم واقعاد العزائم ، فلا تنادى فى المحافل والأندية الا بأنه ليس لمصر حظ فى المستقبل من الحرية والسعادة الاجتماعية ، وان شعبها قد مات من زمن طويل وليس لمفكر عاقل أن يؤمل له مستقبلا جديدا وترى رجال هذه الفئة البائسة يصفون كل رجل بالدفاع عن حقوق البلاد المقدسة بعدم الخبرة وقصر النظر وعندى أن الرجال اليائسين وان كانوا أقل من القليل يضرون بلادهم أعظم ضرر بما يقولونه ويكررونه » ٠

ثم قال فى موضع آخر :

« وثقوا أيها الوطنيون الأعزاء بأن المستقبل لكم ولها ، فأعملوا لسعادتها وتذكروا دائما قول عاميتنا الشهير « ليس المستقبل بمستعصى على أحد »

ولقد كان من خصائص مصطفى كامل ، انه خطيب وكاتب معا ، وانه هو هو فى حالتى الكتابة والخطابة ٠ فحديثه فى الحالين خطاب الى قلوب الناس وعواطفهم ، وأثارة لخيالهم ، وايقاظ لآمالهم ، وتهوين لمتاعبهم ، واستحثاث لكامن قواهم ، والهادى للحاقد من عناصر قوتهم ٠

ولقـد حدثني من أتيحت له فرصة سماع خطب مصطفى كامل ، فقال ان تأثيره فى السامعين كان تأثيرا أقرب الى تأثير الفنان ، أمنه الى تأثير رجل السياسة ، فالسامعون وهم يسمعون يبدو عليهم عميق الحب للخطيب ، والاستمتاع بصوته وشكله ، وشبابه ، وهم يتذوقون حلاوة صوته ، وعذوبة لفظه ، وكأن الغـاية من الاجتماع به هى الانصات اليه ، ولكنهم حينما يأوبون الى دورهم ، يحسون أن شيئا جديدا قد دب الى حياتهم ، وان نظرتهم الى الأمور قد تغيرت ، فشئون الأمة والدولة ، وعلاقات الانجليز بالخديو وعلاقة الخديو بالشعب ، تبدأ فى الاستئثار باهتمامهم مقترنة بتململ من الاحتـــلال وقـــوة قبضته ، ومن تدخل المستشارين فى شـئون التعليم والمال والادارة وهكذا دواليك حتى أصبح الاعجاب بمصطفى كامل الخطيب ، كراهية للاحتلال ، والكراهية للاحتلال ضيقا به ، والضيق به ، سخطا عليه ، وهكذا أصبح مصطفى كامل رمزا على فكرة وطنية ، استحالت مع الزمن الى عقيدة ، والعقيدة أصبحت حافزا للنضال •

لم يكن ينقص المصريين بعد هزيمة التل الكبير ، الا أن يستعيدوا حب النضال وأن تتحرك فيهم غريزته ، وأن يدعوا الاستسلام للهزيمة والرضاء بها ، واليأس من تغيير نتائجها ، وقد نجح مصطفى كامل ، فى أن يوقظ هذه الغريزة ، لأنه قطع كل مايمكن أن يكون بـــين الاحتلال وبين الشعب ، من أسـباب التفاهم أو التلاقى أو المصاحبة وأبرز الاحتلال ، فى ثوبه الحقيقى ، فعرف كل مصرى أنه العار ، وأن الشرف والعـــار ، لا يتجاوران ولا يتهـادنان ، ولا يتفاهمان ، ولا يتقاسمان ، شيئا واحدا ، ولا أرضا واحـدة ، ولا يتنفسان فى هـواء واحد ، أو يتغذيان من طعام واحد ••

هذه جملة حياة مصطفى كامل ، وخلاصة زعامته ، وسر خلوده •

محمد فريد

كانت ذكرى محمد فريد ، تروح وتغدو كل عام ، كما يروح ويغدو الغريب ، فى بلد لايعرفه ولا يمت اليه بصلة أو نسب .

فمنذ أن توفى محمد فريد فى الخامس والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٩١٩ ، والأمور فى مصر تتطور تطورا يباعد بينها وبين محمد فريد ، والمبادىء التى كان يدعو اليها ، والمثل التى كان لاينفك يفكر فيها ويعمل لها ، فلما تقدم الزمن ، أصبح المصريون ، بالأحزاب التى يعيشون فى ظلها ، وبالأساليب التى يتوسلون بها ، أشبه شىء بالأعداء الألداء لمحمد فريد ، ومن هنا ، كانت ذكرى محمد فريد ، كالغريب النازح من ديار بعيدة ، لايلم بمصر ، الا يوم ١٥ نوفمبر من كل عام ، اذ جرى تقليد الوطنيين ، أن يقيموا لذكراه فى هذا التاريخ احتفالا ، لايشاركهم فيه أحد غيرهم ، واذا رضى الله عنهم كتب كاتب مقالا فى صحيفة عن محمد فريد ، ومناقبه الوطنية العظيمة .

ومن هنا ، بقى دور محمد فريد فى الكفاح الوطنى مجهول الأثر ، وان كان كل مصرى لايتردد فى أن يقول فور البديهة ، أن تضحيات محمد فريد جاوزت به مستوى زعماء الوطنية الى مصاف القديسين والشهداء ، بل الرسل والأنبياء ، وقد يكون عمق احساس المصريين بتضحيات محمد فريد وعظيم تقديرهم لما تحمله فى منفاه من فقر ومرض ، ومن ألم الغربة الموحشة ، راجعا الى ماطغى على الوطنية المصرية ، عقب وفاة محمد فريد ، من تنافس مرير فى جمع أسلاب الحياة ، ومن تكالب مخز فى الاستئثار بعرض الدنيا ، ولكن

تضحيات محمد فريد ، على ضخامتها ، ليست الا جانبا صغيرا جدا من عظمته الشاهقة السامية ، التي يعيا الانسان دون الاحاطة بها ٠

ويجب أن تعرف حقيقة من حقائق حياة محمد فريد ، لنعرف طبيعة عظمته ، فليس محمد فريد أصلا من الزاهدين في متع الدنيا وأطايبها ٠ فقد ولد محمد فريد من ذراعي الثراء والنعمة العريضة ، ومن كونه من المقبلين عليها غير المنصرفين عنها ، وهو لم يسع الى وحشة الغربة ولا الى ضيق الفقر ، لأنه آمن بمذهب جديد من مذاهب الحياة ، انما الذي حمله على ذلك ايمانه العميق ، بعقيدته الوطنية ٠

وعقيدته الوطنية ، ليست مجرد ايمان ببلاده ، وبجلاء الانجليز عن مصر ، فقد كانت في عهد محمد فريد ، وطنيات كثيرة ، كانت هناك وطنية اسلامية لاتفهم مصر كيانا مستقلا بذاته ، وانما تفهمها قطعة من الأمل ، في عالم اسلامي ، يبدو للناس غامضا أشد الغموض وان كان في الوقت نفسه جميلا غاية الجمال ، وهو غامض لأن أحدا لم يحدد صورته ، ولا الوسيلة الى ايجاده ، ولأن أحدا لم ينظم العاملين في سبيله ، أو الداعين الى وجوده ، ومع ذلك هو جميل ، لأنه يصور للناس عالما يتحد فيه المسلمون ، وتعود اليهم في ظله سيادتهم ، وتستيقظ بفضله ثقافتهم ٠ وكانت هناك وطنية مصرية عثمانية ، أقصى ماترومه أن تعود مصر قطعة من دولة الخلافة العثمانية ، وكانت هناك وطنية لاتخاصم الانجليز ، ولاتشتد في مخاصمتهم بدعوى أن الاحتلال ليس فرضا في ذاته ، انما هو عرض لمرض ، وأن المرض الأصيل الحقيقي ، هو جهل المصريين وبعدهم عن ميدان الصناعة والزراعة ، وترددهم عن الأخذ بأساليب الحضارة الغربية ، والعدو في ميدانها عدوا لايلوى معه المصريون على شيء آخر ، من تقاليدهم وعاداتهم ٠

ولكن كان طابع كل هذه الوطنيات المهادنة والاستسلام ، وحاجتها الكبرى الى التنظيم والتجديد ، وقد اضطلع محمد فريد بكل هذا ، وقد بدأ أول مابدأ ، بتخليص الوطنية المصرية من شوائب التعاون مع الأسرة المالكة ، فقد بدا الخديو عباس ، فى السنين الأولى لزعامة مصطفى كامل ، نصيرا للحركة الوطنية ، وكان يظن أنه قادر على استمالتها واستغلالها ، فلما شبت عن الطوق ، وخرجت من دور الحبو ، الى دور العدو أخافته فتنكر لها ، وان لم يستطع البطش بها ، فلما آلت الزعامة الى محمد فريد لم ير فيه استعدادا للمهادنة ،فأسفر عن حقيقة بنائه ، فلم ير من محمد فريد ، الا محاربا صلبا عنيدا شديد المراس ، فقد كان محمد فريد ، يصليه من نقده الصريح ، شواظا من نار قلمه .

وخرج محمد فريد بالحركة الوطنية ، من دور الدعوة والاهابة والتحريض والاثارة ، الى دور الكفاح الشعبى العام ، فارسى الحركة الوطنية على قواعدها الأصيلة ، أعنى العمال والفلاحين وصغار أبناء الشعب المجردين من المصالح المطبوعين على الكفاح ، فاضطر الانجليز اضطرارا الى مكافحة الشعب المصرى جهرة ، بعد أن كانوا يضربونه بأيد مصرية .

ولما أحس محمد فريد أن الانجليز قد عقدوا العزم على أن يخنقوه خنقا ، هاجر فى سنة ١٩١٢ ، الى تركيا ، وما ساور الخديو من قبل، من طمع فى استغلال الوطنية المصرية ، ساور حكومة الأتراك ، فقد حسبوا أنهم قادرون ، على أن يستغلوا بعد محمد فريد عن الأنصار، ووقوعه فى قبضة أيديهم ، واندلاع الحرب العالمية الأولى التى قطعت مابينه وبين بلاده وأهله من الأسباب ، فيرهبوه ، ويجعلوا منه زعيما فى الظاهر ، وستارا لنواياهم وأهدافهم فى الباطن ، ولكنه رفض ذلك فى شجاعة ، لايعرف قيمتها ، ولايقدر قدرها الا من كابدمواطن

الخطر ، وعرف كيف تخون الرجال شجاعتهم ، فى مواقف الشدة والهــــول .

نقل محمد فريد نشاطه من تركيا الى سويسرا ، والى المــانيا ، والحرب مشبوبة الاوار ، ومصير العالم كله يتكون ويتكيف ، وهو لاييأس ، ولايقنط ، ولايؤجل نشاطه وكفاحه ، الى أن تضع الحرب أوزارها ، ومن يقرأ رسائل محمد فريد فى هذه الحقبة القصيرة التالية لاعلان الهدنة فى ١١ من نوفمبر سنة ١٩١٨ حتى وفاته فى ١٥ من نوفمبر فى العام التالى ، يهوله هذه الحيوية الدافقة التى بدأ بهـــا محمد فريد ونضحت بها أعماله ورسائله وخطبه ، التى لم يكن فى مقدور رجل وحيد أعزل ، الاضطلاع بها ، فاذا أضفت الى وحــــدته وعزلته مرضه الهادم ، الذى كان كفيلا وحده بأن يسلمه الى الركود والاستسلام .

كافح محمـــــد فريد فى خـــلال الحرب ، وفى فترة ما بعــد الحرب ، كفاحا انسانيا ، فانه لم يجد جماعة من الجماعات المكافحة للاستعمار ، أو الداعية الى نصرة الشعوب المؤيدة لحقوق الانسان ، الا واتصل بها ونسق علائقه برجالاتها ، ولو آمتد العمر بمحمد فريد وعاش بضع سنين بعد الحرب ، لكان زعيما عالميا ، تلتف حوله الأمم المقاتلة فى سبيل حريتها ، ولعرف طابعه المميز له فى النضال ، ولكن المنيـــة عاجلته ، فترك الحركة الوطنية التى بذر بذورها ، وتعهدها بالرى من دمه وعرقه ، ووالاها بالدفء من أنفاس حياته ... تركها يتيمة ، لاتجد من يأخذ بزمامها ، أو يدفع بها الى الطريق السوى .

كانت قومة مصر فى سنة ١٩١٩ ، أثرا مباشرا لكفاح محمد فريد، فمصر خلال الحرب العالمية الأولى ، لم تكن تسمع الا الأصـــــوات المخنوقة المنبعثة من شباب الحزب الـــوطنى تلاميـــذ محمد فريد ،

الذين تناهبت أكثريتهم الكبرى السجون والمعتقلات ، فلما بدأت هذه المعركة الآنفة كان الأمل ان تتجه اتجاهها الصحيح ، وان تكون وصلا لما انقطع لجهاد المجاهدين ، ولكنها للأسف المحض ، ذهبت حركة حزبية ، لاتعرف لها أسلوبا من أساليب المجاهدين ، فلا هى حركة عنف وقتال ، ولا هى حركة مقاومة سلبية ، وكفاح سلمى ، انما هى أشبه شيء بالحرب الأهلية ، يكسب منها الأعداء كل شيء ، ولا يكسب منها الوطن الا الخسران والخيبة والا الفرقة والاحن المشبوبة ، والبغضاء المبيدة .

ولقد بدأ محمد فريد ، يدعو الى العدالة الاجتماعية ، قبل أن تقوم ثورة ١٩١٩ ، بأكثر من عشر سنين ، فنظم نقابات العمال ، ودعا الى التعاون ، وطالب بالاصلاح الزراعى ، وقاتل قتالا مرا ، من أجل الطبقات الكادحة ، فكان طبيعيا أن تطرد خطا الحركة الوطنية فى هذا السبيل ، وأن تقوم حركتنا الوطنية على هذه الأسس التى تجمع الشعب ، فى جبهة فسيحة عميقة واسعة النطاق .

ولكن شيئا من هذا لم يتحقق ، فقد استهلكت الحيوية المصرية ، فى الهتاف لشعارات جوفاء ، لا تسمن ولاتشبع من جوع ، فباتت الحرية المصرية ، بلا أظلاف ، ولا أنياب ، يهزأ بها الانجليز ، ويركبها الملك بالهوان وتعابثها الأحزاب عبثا لاينتهى ، ولا يجد المصريون آخر الأمر فى أيديهم سوى حديث طويل مملول عن الحرية ، وعن الدستور ، ولا حرية ولا دستور .

لكن روح محمد فريد قد عادت اليوم ، قوية ظافرة ، فقد تحققت أهدافها ، وأصبحت الوطنية المصرية ، وطنية مدججة السلاح ، اذا سولت نفس أحد له أن يمسها عن قريب أو بعيد ، عرفت كيف تضرب ... فلتهنأ روحه فى أنس هذا المجد بعد طول الوحشة والاغتراب .

الأمير عبد القادر الجزائري
مولاي الشريف إسماعيل

بقلم
عبد الحميد العبادي

الأمير عبد القادر الجزائرى

لاشك أن الأمير عبد القادر الجـزائرى يعد علـما من أعلام الاسلام وأبطاله فى العصر الحديث فقد كافح من أجل استقلال بلاده مدة سبع عشرة سنة دولـة فرنسا التى كانت تعد فى القرن الماضى فى طليعة دول العالم من حيث القوة الحربية والسبق فى ميـادين الحضـارة الحديثـة ، ولبيان ذلك نقول : ان فرنسـا بعد أن أفاقت من أحداث الثورة وحروب نابليون أخذت تسعى جاهدة فى ايجاد مستعمرات لها تعوض عليها ما فقدت من أملاكها فى القرن الثامن عشر وتعـوض عليها فشل حملتها المشهورة على مصر ٠

وقد وجدت فى شـمال افريقية مجالا خصبا لتحقيق أغراضها الاستعمارية ٠ وبدأت فى ذلك بالجزائر التى هى أقرب جهات الساحل الافريقى اليها ٠

وكانت الجزائر فى أوائل القرن الماضى تابعة لتركيا تبعية اسمية ولكنها فى الواقع كانت مستقلة بشـئونها الداخلية والخارجيـة الى حد بعيد ، فانتهزت فرنسا فرصـة وقوع حادث تافه لقنصلها مـع والى الجزائر التركى وجردت حملة كبيرة على مدينة الجزائر واحتلتها فى يولية سنة ١٨٣٠

وفى خلال الأربع السنوات التالية استولى الفرنسيون على مواقع ساحلية اخرى هى مستغانم ودهران وارزو ، أما سـائر الجزائر

فوقع في الفوضى ، اذ أصبحت القبائل يحارب بعضها بعضا واختل الأمن أيما اختلال ، فى هذا الجو جو الاحتلال الأجنبى والفوضى الضاربة أطنابها ظهر الأمير عبد القادر الجزائرى الذى عمل على طرد المستعمر ٠

والأمير عبد القادر ، من أسرة عربية شريفة النسب ، كانت تنزل فى الاقليم الغربى من الجزائر فى مكان يعرف بمعسكر ٠ ولد سنة ١٨٠٨ ميلادية ونشأه أبوه الشيخ محى الدين نشأة حسنة ، فلما ترعرع كان شابا وسيم الطلعة ، عظيم المواهب بارعا فى العلوم والآداب الاسلامية ، وفوق ذلك كان حاذقا للفروسية وفن الحرب ٠ ثم أن أباه اصطحبه معه فى رحلة الى المشرق حيث أدى معه فريضة الحج ، وسافر الى الشام والعراق وزار ضريح سيدى عبدالقادر الجيلانى مؤسس الطريقة القادرية الصوفية التى تنتمى اليها أسرته ٠ ثم يعود الأب والابن من تلك الرحلة التى استغرقت سنتين من ١٨٢٧ الى ١٨٢٩

فلما احتلت فرنسا مدينة الجزائر وحل بالجزائر من الفوضى ما سبقت الاشارة اليه اجتمع أعيان الاقليم الغربى الى الشيخ محيى الدين وكان معروفا عندهم بالورع والصلاح وشرف النسب وصدق الوطنية فبايعوه على جهاد الفرنسيين وضبط أحوال الاقليم ، وقد قام فعلا بمحاربة الفرنسيين ومعه ابنه عبد القادر مدة سنتين ، ثم اعتذر الشيخ محى الدين بكبر السن وضعفه عن تحمل أعباء الجهاد فطلبوا اليه أن يولى الأمر ابنه عبد القادر لما ظهر من كفايته وشجاعته فى الحرب فكان ماطلبوا وبويع عبد القادر أميرا من أهل العقد والحل وذلك فى سنة ١٨٣٢

ويساجل الأمير عبد القادر ، الفرنسيين الحرب ويستولى على مستغانم ويحتل تلمسان ، فيضطر القائد الفرنسى

دوميشيل أن يعقد معه معاهدة مؤداها أن يكـون للفرنسـيين المدن الساحلية الأربع التى احتلوها وللأمير ماسوى ذلك ، وألا يقبـل الفرنسيون من يجيئهم من رعايا الأمير وألا يقبل الأمير من يجيئه من رعايا الفرنسين وأن يكون لكل من الطـرفين وكـلاء فى المدن الكبيرة التى للطرف الآخر ·

كانت هذه المعاهدة فى سنة ١٨٣٤ ، ولكن لم يمض على ابرامها غير سنتين حتى نقضها الفرنسيون بقبولهم تحت حمايتهم قبيلتين من رعايا الأمير · فما كان من الأمير عبد القادر الا أن أعلن الحرب على الفرنسيين ، وجرت بينه وبينهم وقعـة المقـطع المشهورة فى يولية سنة ١٨٣٦ فهزم قائدهم ترزل هزيمة شنعاء ونجا القائد من الموت أو الأسر بمشقة بالغة ، مما حدا بالحكومة الفرنسية الى عزل ترزل وحاكم الجزائر العام وتولية المارشال كلوزل مكانه ·

جاء كلوزل الى الجزائر مصمما على فتح البلاد كلها وعدم الاكتفاء بالمدن الساحلية فشن الغارة فى الاقليم كله ، فيجمع الأمير شـمل القبائل ويهاجم جيشا فرنسيا بقيادة دارلنج ويهزمه عنـد مصـب وادى تافنا فتستدعى فرنسا كلوزل وترسل بدلا منه المارشال بيجو ، فيبرم مع الأمير معاهدة تافنا فى ٣٠ مايو سنة ١٨٣٧ وبهذه المعاهدة صار للأمير اقليم وهران كله تقريبا وأجزاء هامة فى اقليم الجـزائر المتوسط أى نحو ثلثى الجزائر كلها مع تعهد من الأمير بالاعتراف بسلطان فرنسا واستقلال اقليم قسطنطينة ·

غير أنه لم يمض على ابرام المعاهدة أربعة أشـهر حتى قام الحاكم الفرنسى العام دمرمون بمهاجمة قسطنطينة ، وكانت بقيـة ملك الترك فى الجزائر فاستولى عليها بعد أن تكبد جيشه خسائر فادحة فى الأرواح ·

ثم ينصرف الأمير عبد القادر ، بعد ابرام معاهدة تافنا ، الى تنظيم امارته التي كونها بالسياسة والحرب معا فينشىء جيشا نظاميـا

بمعونة ضباط من الترك والفرنسيين الفارين اليه وكان الجيش مكونا من مشاة وفرسان ومدفعية تبلغ عدتهم نحو ۱۲٫۰۰۰ جندى معدين أحسن الاعداد من حيث السلاح واللباس والطعام والمرتبات ووضع لهم قانونا يكفل نظام الجند فى التدريب عند مباشرة القتال ، ثم كان للأمير جيش آخر متطوع بحشد من القبائل عند نشوب الحرب ٠

ثم أنه عمد الى التنظيم الادارى لامارته فيوجد هيئة نظار أو وزراء فكان لكل من الشئون الداخلية والخارجية والمالية والأوقاف ناظر خاص ٠ وقسم البلاد الى ثمانى مقاطعات على كل منها خليفة ، ثم قسم المقاطعات الى دوائر على كل منها رئيس يقال له (أغا) وهذه الدوائر كانت تشتمل على قبائل وكل قبيلة تشتمل على بطون وعشائر ، فجعل على كل قبيلة قائدا وعلى كل بطن أو عشيرة شيخا ٠ فكانت الأوامر الأميرية تصدر الى الخلفاء فالأغوات فالقواد فالشيوخ وترد القضايا الى الآمير بعكس هذا الترتيب ٠ وفى وقت الحرب تكون لهؤلاء الرؤساء الصفة العسكرية فيجمع كل منهم جماعة من عشيرته ويحضر بهم الى ميدان القتال ، وهذا هو الجيش غير النظامى ثم أنه اتخذ فى كل مقاطعة دار شورى ينتخب الخليفة أعضاءها ، وجعل أمر هذه المجالس مربوطا بالمجلس العالى لقاضى القضاة ما لم يحضره الأمير فيكون هو الرئيس

وعين فى كل عمالة واسعة قاضيا عالما يفصل فى القضايا الشرعية على مذهب الامام مالك وجعل رئيسهم قاضى القضاة الذى هو رئيس المجلس الخاص ومع ذلك فقد فتح الأمير بابه لكل متظلم أيا كان ٠

وعنى الأمير بنشر التعليم فى أنحاء امارته والاستكثار من الكتب كما عنى بالآداب العامة فمنع شرب الخمور ولعب القمار واستعمال الدخان وأخذ الناس بصلاة الجماعة في المساجد ، كما أنشأ

كثيرا من المستشفيات فى كل المقاطعات وعين فى كل مستشفى أربعة أطباء ، ويرجع أمر جميع الأطباء والمستشفيات الى طبيبه الخاص .

وتمت كل هذه الاصلاحات ، فى السنتين اللتين أعقبتا معاهدة تافنا ، وكان القائد الفرنسى فاليه يرقب نشاط الأمير بعين الحذر فلما وجده يمد نفوذه فى الاقليم الشرقى وهو اقليم قسطنطينه لم يرقه ذلك ، وطلب الى الأمير أن ينزل له عن أراض معينة تصل برا بين قسطنطينة ومدينة الجزائر فرفض الأمير طلبه محتجا بالمعاهدة فما كان من فاليه الا أن قام بجيش فرنسى اصطحب معه ابن الملك وسار برا من قسطنطينه الى الجزائر فاعتبر الأمير هذا الأمر خرقا للمعاهدة وأعلن الى فاليه الحرب . وبادر الأمير فهاجم فى عنف وشدة بجيوشه النظاميةوالمتطوعة مواقع الفرنسيين ومستعمراتهم منتصراً فى كل مكان .

وبدا لفرنسا أن جهودها فى مدى عشر سنوات قد انهارت فأرسلت الى الجزائر المارشال بيجو وأطلقت يده وأبلغت الجيش الجزائرى الى ١٠٨٠٠٠ جندى .

جاء بيجو بخطة جديدة ترمى الى الاستيلاء على الجزائر كلها لا الاكتفاء بمواقع ساحلية معينة كما كانت الحال حتى ذلك الوقت كما رأى أنه لكى يضعف قوة الأمير عبدالقادر ويشل حركته ينبغى أن يعمد الى تخريب كل ما تصل اليه أقدام الفرنسيين من أملاك الأمير ، فيحرق القرى ويتلف الزروع والمحصولات ويقطع الأشجار ويستاق قطعان الغنم والماشية ويقتل ويأسر كيف شاء وبذلك تنصرف القبائل عن عبد القادر الى جانب الفرنسيين . واندفع بيجو بقواته الهائلة ينفذ هذه الخطة الوحشية فأنتجت له فى سنتين ماكان يريد ، اذ أخذت القبائل تنصرف عن الأمير وتنحاز الى الفرنسيين وتم

لبيجو انتصاره بتخريبه عاصمة متنقلة مؤلفة من الخيام كان الأمير قد أنشأها بعد ذهاب قواعده ، ترحل برحيله وتنزل بنزوله ، وقد نهب الفرنسيون كل ماكان فيها من عتاد وسلاح وأموال ونفائس من ضمنها مكتبة الأمير ٠

ويضطر الأمير تحت ضغط الظروف الى الالتجاء الى داخل الحدود المراكشية فتتعقبه القوات الفرنسية ولما تصدت لها القوة التى أرسلها سلطان مراكش حاربها بيجو وهزمها ، ثم أن الأسطول الفرنسى توجه الى طنجة فضربها بمدافعه ، وأخيرا تم الصلح بين فرنسا وسلطان مراكش على تعيين الحدود الفاضلة بين الجزائر ومراكش وعلى أن يتخلى سلطان مراكش عن الأمير عبد القادر ، وقد اضطر سلطان مراكش تحت تهديد فرنسا الى ارسال جيش لاخراج الأمير من مراكش أو أسره ، فلما رأى الأمير أنه قد وقع بين نارين وأن القبائل قد خذلته لم يسعه الا أن يسلم نفسه الى القائد الفرنسى لاموريسيير على أن ينقل هو وأسرته ومن يختار الرحيل معه الى الاسكندرية أو الى عكا ٠ وقد رحب القائد الفرنسى بذلك وأقره واعتمده ابن الملك وكان ذلك فى سنة ١٨٤٧ وبذلك تنتهى حياة الأمير السياسية ٠

غير أن الحكومة لم تنفذ ما اشترطه الأمير من نقله الى الاسكندرية أو عكا فقد كانت لا تزال تخشى نفوذه وسطوته فاعتقلته فى قصر طولون مدة ثم نقلته الى قصر بو فقصر امبواز وظل معتبرا أسير حرب حتى تولى الامبراطور نابليون الثالث فقد زار الأمير فى قصر امبواز ولاطفه واعتذر اليه ثم سلمه صحيفة فيها الاذن باطلاق سراحه وسفره الى تركيا على ألا يتدخل الأمير فى شئون الجزائر أبدا ٠

ورحل الأمير وأسرته وحاشيته الى تركيا فقبله السلطان بقبول حسن وأنزل فى بروسه حيث مكث سنتين ثم انتقل منها الى دمشق

حيث أخذ يعيش عيشة هادئة مقسما وقته بين الدرس وقرض الشعر ومراسلة العلماء وتربية أولاده •

وفى سنة ١٨٦٩ دعى الأمير الى شهود حفل افتتاح قناة السويس فلبى الدعوة ضمن من لباها من الملوك والعظماء • وظل على حياته الهادئة حتى وافاه الأجل فى سنة ١٨٨٣ فقضى ولسان حاله ينشد قول القائل :

تقلدتنى الليالى وهى مدبرة   كأننى صارم فى كف منهزم

ذلكم ملخص سيرة الأمير عبد القادر الجزائرى فليكن من سيرته العاطرة لاخواننا الجزائريين خير مشجع لهم فى كفاحهم المجيد من أجل كرامتهم وحرية بلادهم •

مولاى الشريف اسماعيل

هـذا عـلم من أعـلام التـاريخ المغربى الاسلامى هو مولاى الشريف اسماعيل ثانى سلاطين أسرة الأشراف العلويين التى لاتزال لها الولاية الشرعية على مراكش حتى يومنا هذا • وقد جلس على عرش المغرب الأقصى خمسا وخمسين سنة لم يحكم مدة أطول منها الا علوى آخر هو المستنصر بالله الفاطمى المصرى ، لـكن شتان بين العهدين فقد كان عهد المولى اسماعيل عهد قوة وتمكن وعهد المستنصر عهد ضعف وصل فى بعض الأحيان الىدرجة الذل والهوان •

ومولاى اسماعيل شخصية عجيبة حقا ، فـذة بين الشخصيات الكبيرة ، وهى مع ذلك شخصية تاريخية ، لا يعتورها الوهم أو الخيال من أية ناحية من نواحيها ، فقد تظاهرت فى رواية أخبار المولى اسماعيل مصادر عربية معاصرة له وطائفة كبيرة من تقارير الشعراء والقناصل والرحالين والتجـار والمبشرين الأوروبيين الذين وفدوا على مراكش فى عهده •

تولى مولاى اسماعيل أمر مراكش فى سنة ١٦٧٢ ولما تزد سنه على ست وعشرين سنة فقضى الست الأخيرة منـها فى معاونة أخيه مولاى الرشيد فى أمور الحكم • وتصفه المصادر التى ذكرت بأنه كان مديد القامة ، حاد العينين ، عظيم اللحية ، جهورى الصوت ، قوى البنية ، ممتلئا حيوية ، قالوا انه كان فى صـباه يستطيع أن يركض جواده حاملا بيده اليسرى أحد أبنائه وتلعب يـده اليمنى

برمحه . وحتى عندما بلغ الستين من عمره كان يستطيع بقفزة واحدة أن يستوى على صهوة حصانه ، وتصفه المصادر من ناحية أخرى بالعنف وحدة المزاج ، وقوة العزيمة ، والقدرة على العمل المتصل ومباشرة شئون الحكم بنفسه حتى كان لا تغيب عنه منها صغيرة ولا كبيرة .

وكانت مراكش لأول عهده قد مرج أمرها وعمها الاضطراب ، فقد خرج عليه غير واحد من أقربائه كما تمرد كثير من قبائل العرب والبربر وشقوا عصا الطاعة . أما فى الخارج فكان الأسبان والانجليز والبرتغال قد احتلوا كثيرا من ثغور السواحل الشمالية والغربية ، وأخذوا يمدون عيونهم الى ما وراء هامش المناطق الداخلية كما كان الترك العثمانيون بالجزائر يعملون على بسط سلطانهم على مراكش بعد أن بسطوه على الجزائر وتونس ، فكانوا لذلك يحرضون القبائل المراكشية على الثورة ويمدونها بالمال والسلاح ولقد عول مولاى اسماعيل أول الأمر على دهائه وبراعته فى معالجة الحال الداخلية ، فكان يضرب القبائل بعضها ببعض ، ويحمل من أطاعه على من عصاه ، ولقد قضى الخمس والعشرين سنة الأولى من عهده الطويل فى كفاح متصل فكان أبدا على متن جواده يذرع البلاد شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، يقود الجيوش ويسير الحملات ، ولكنه جنى فى النهاية ثمرة كفاحه اذ أذعن له الثوار والمتمردون وعادت الى الحكومة هيبتها واعتبارها .

ولكى يظل مولاى اسماعيل ضابطا أمر ملكه فى الداخل ولكى يستطيع أن يجاهد المستعمرين الأوربيين النازلين بسواحله ، ولكى يقضى على مطامع الترك فى بلاده ، رأى أن لا بد له من جيش قوى

منظم كأحسن ماتكون الجيوش فى زمانه وقد أشرف بنفسه على تكوين ذلك الجيش اشرافا تاما ، فاتخذه من ثلاثة عناصر فجيش من العبيد السود ، وجيش من قبائل العرب المراكشية ، وجيش من المغاربة المتطوعين لجهاد المستعمرين • والجيش الأول هو أعجب الجيوش الثلاثة ، وهو الركن الركين لقوة السلطان الحربية • فقد أرسل فى أنحاء مراكش حاشرين يجمعون من فيه من العبيد والاماء فأتوه من الجنسين بعدد كبير ضم اليه من جلبهم من السودانين الغربى والأوسط ، فتكامل له بذلك نحو أربعة عشر ألفا فزوج الذكور من الاناث وأنزلهم فى محلة يقال لها مشرع الرمل بين مكناسة وسابى • ثم أنه جمعهم وأحضر نسخة من صحيح البخارى وقال لهم « أنا وأنتم عبيد لما فى هذا الكتاب » وأحلفهم على أن يعملوا بكل ما يأمر به ويتركوا كل ماينهى عنه وأن يقاتلوا على ذلك ، فعاهدوه ، ولذلك عرفوا بعبيد البخارى • ثم أنهم تناسلوا وكثروا • فأمر السلطان أولئك العبيد أن يأتوه بأبنائهم وبناتهم من عشر سنين فما فوق ، فلما قدموا عليه فرق البنات على عريفات قصوره بقصد التربية والتأديب عامة وتعلم الموسيقى لمن لهن استعداد لها • وفرق الاولاد على أهل الحرف والصناعات للعمل والخدمة وسوق الحمير والتدرب على ركوبها ، حتى اذا أكملوا سنة نقلهم الى سوق البغال الحاملة لأدوات البناء ونحو ذلك ، حتى اذا أكملوا سنة نقلهم الى المرتبة الأولى فى الجندية ، فكساهم ودفع اليهم السلاح يتدربون به على الجندية وطرقها حتى اذا أكملوا سنة دفع اليهم الخيل يركبونها بغير سروج ويجرونها فى الميدان ، حتى اذا أكملوا سنة وملكوا رأسها دفع اليهم السروج فيركبونها بها ويتعلمون الكر والفر والمهارة فى المطاعنة والمراماة على صهواتها ، حتى اذا أكملوا سنة صاروا فى عداد الجند المقاتلة ، فيخرج لهم السلطان اللائى قدمن معهم ، ويزوج كل واحد من الأولاد واحدة من البنات ، ويعطى الرجل

عشرة مثاقيل ذهبا مهر زوجته ويعطى المرأة خمسة مثاقيل لشوارها ، ويبعث بهم الى المحلة بعد أن يكتبوا فى ديوان العسكر ٠

ولقد نما هذا الجيش بهذه الطريقة على توالى السنين حتى بلغ ١٥٠٫٠٠٠ جندى ، أبقى السلطان نصفهم بمشروع الرمل واتخذ ٢٥٫٠٠٠ منهم حرسا خاصا بمكناسة ، وفرق الباقين على القلاع الست والسبعين التى أنشأها فى نواح يعينها من مراكش ٠

أما الجيش الثانى فكان مؤلفا من قبائل العرب الموالية للسلطان أو التى بينها وبينه مصاهرة أو صلة نسب ٠ وقد سجلهم فى الديوان وأنزلهم فى معسكرين فى فاس ومكناسة ، وأما الجيش الثالث من متطوعة المغرب الذين رغبوا فى المرابطة والجهاد فى سبيل الله فكان هدفهم منازلة الثغور التى بأيدى المستعمرين الأوربيين ، وكان السلطان يمدهم بالمال والسلاح ٠

بهذه القوى الضخمة ، أقدم المولى اسماعيل على مهاجمة الحاميات الأوروبية النازلة بسواحله ، فاسترد « المعمورة » من الأسبان فى سنة ١٦٨١ وغنم مائة مدفع كانت لهم بها ٠ ثم شرع فى سنة ١٦٧٩ فى محاصرة طنجة ، وألح عليها بالحصار ومداومة الهجوم حتى اضطرت القوة الانجليزية التى بها الى الجلاء عنها فى سنة ١٦٨٤ بعد أن خربوها واستولى جيش المجاهدين من الأسبان على « العرائس » فى سنة ١٦٨٩ و « آصتبيلا » فى سنة ١٦٩١ وبذلك حرر السلطان السواحل الغربية كلها تقريبا من النفوذ الأجنبى ٠ أما الساحل الشمالى فكانت تنزل به حاميات اسبانية فى سبته ومليلة والحسيمة وغيرها ، فضيق السلطان عليها الخناق وقطع عنها المادة حتى ضعفت وبذلك سهل الاستيلاء عليها على من جاء بعده ٠

أما ترك الجزائر فقد ساجلهم السلطان الحرب الى أن شكوا حالهم معه الى السلطان العثمانى سليم بن ابراهيم ، فكتب اليه يطلب منه الكف عن مقاتلتهم ، فأجابه المولى اسماعيل الى ما طلب بعد أن عينت الحدود بين مراكش والجزائر ٠

وبمقدار حرص المولى اسماعيل على أمن بلاده واستقلالها كان حرصه على رفاهيتها وتقدمها الاقتصادى ٠ وقد رأى بثاقب نظره أن التجارة أجدى على الدولة من القرصنة التى كانت تتخذ وسيلة لكسب المال ٠ فعمل على تنمية التجارة الخارجية مع الدول الأوربية ، فنشطت المعاملات بين مراكش وبين انجلترا واسبانيا وهولندة وايطاليا وبلاد شرق البحر المتوسط ٠ وكان للانجليز المكانة الأولى فى التعامل التجارى مع مراكش ٠ وأصبحت مدينة فاس العاصمة التجارية للمغرب كله ، ومن طريق النهوض بالتجارة كثرت الأموال الآتية من الضرائب المفروضة على الصادر والوارد واتسعت أحوال الناس وعم الرخاء ٠

وكان للمولى اسماعيل ، شغف عظيم بالبناء ، شأنه فى ذلك شأن كثير من خلفاء الاسلام وملوكه ، فقد اختط بجوار عاصمة مكناسة مدينة ملكية عظيمة متعددة القصور الفخمة والبساتين والحدائق والقباب الهائلة ، ومخازن السلاح وأدار حول ذلك كله سورا عظيما محيطه خمسة وعشرون كيلو مترا ٠ وكان يعمل فى بناء هذه المدينة نحو ٥٠٫٠٠٠ نفس نصفهم من أسرى الحرب الأوربيين والنصف الآخر ممن كان فى سجونه من أصحاب الجرائم ، هذا الى عدد كبير من الفنيين جمعهم من جميع الأنحاء ٠ ولا تزال الآثار الباقية من هذه المدينة قائمة كالجبال الشوامخ على الرغم من تقادم الزمن وطول العهد ٠

ونعمت مراكش فى عهد المولى اسماعيل بأمن شامل لم تنعم بمثله من قبل ولا من بعد ، حتى لقد بلـغ من استتباب الأمن أن المـرأة قد تسافر وحدها من أقصى مراكش الى أقصاها فلا يسألها انسان من أين والى أين ؟

على تلك الحال ترك المولى اسماعيل مراكش عندما توفى فى سنة ١٧٢٧ وقد نيف على الثمانين ، تركها قوية ، عزيزة الجانب ، رخية الحال ، معدودة من الدول الكبرى فى ذلك الزمان .

عبد الرحمن الكواكبى

قاسم أمين (كلمة أولى)

قاسم أمين (كلمة ثانية)

بقلم

محمد فريد أبو حديد

عبد الرحمن الكواكبى

انه من واجب الوفاء علينا نحن الذين نعيش فى عهد النهضة ـ نحن الذين قدر لنا أن نشهد مصارع الطغيان والاستبداد ـ نحن الذين من حسن حظنا أن نشارك فى الحياة الجديدة التى تسمح لنا أن نفكر لأنفسنا وأن نعمل لأنفسنا ـ من واجب الوفاء علينا أن نذكر اخوانا لنا فى مصر وفى غير مصر من بلاد العروبة ، عاشوا من قبل فى العصور الماضية المظلمة وقاسوا كثيرا من العسف والظلم وتألموا كثيرا عندما رأوا شعوبهم غارقة فى جهالتها غافلة عن كرامتها وحريتها ... هؤلاء الاخوان قضوا حياتهم فى ألم ومشقة ، وكانوا يشقون طريقهم فى وسط الأشواك والمخاطر ولكنهم لم يستسلموا ولم يضعفوا بل واصلوا الجهاد بأقلامهم وأصواتهم ، يعلمون الناس أول مبادىء الكرامة القومية والعزة الوطنية والحرية الانسانية . من واجب الوفاء علينا أن نعرفهم ونحيى ذكراهم لأنهم أصحاب فضل كبير علينا ، ولولاهم لما تمكنت الشعوب العربية من أن تنهض فى عصرنا هذا ، ولولاهم لما تمكنت مصر من أن تثور ثورتها فى وقتنا هذا .

وأحب أن أتحدث اليكم أيها الاخوان عن بعض هؤلاء الأحرار النبلاء فاخترت لحديث اليوم رجلا يعرفه عدد قليل من الملايين الذين يجنون الآن ثمار غرسه وهو السيد عبد الرحمن الكواكبى الذى تفتحت أعين شباب الجيل الماضى على معانى الحرية من قراءة كتابيه « أم القرى » و « طبائع الاستبداد » .

كان السيد عبد الرحمن الكواكبى موفقا كل التوفيق عندما جعل شعار كتابه كلمة تصلح لأن تكون نبوءة فقد وصف كتـــابه بأنه « كلمات حق وصرخة فى واد ان ذهبت اليوم مع الريح فقد تذهب غدا بالأوتاد » •

حقا لقد ذهبت كلماته حينا مع الريح ، ولكنها كانت بذرة طيبة مازال الريح يحملها حتى ذهبت بأوتاد الطغيان بعد مرور خمســين عاما من أول رحلتها •

وقصة حياة السيد عبد الرحمن أكثر انتقاما للأحرار من الكتابين اللذين خلفهما للأجيـال المتعاقبة ، لم تطل حياته لأنه توفى عن خمس وخمسين عاما فقد ولد فى سنة ١٢٦٥ ، وكانت وفاته فى ســـنة ١٣٢٠ الموافقة لسنة ١٩٠٢ ، ولكن عمره القصير كان عريضــــا خصبا يندر أن نجد بين المجاهدين من يشبهه فى وقف كل نشاط على ايقاظ الأمة العربية وتحريكها لاسترداد حريتها ، وكان نشاطه فى أول الأمر مقصورا على مواجهة الطغيان والفساد والضعف فى دائرة محدودة لاتتعدى مسقط رأسه مدينة حلب فى موطنه سوريا ، وقد انتهى به صراعه مع الطغيان الى أن حبس وجرد من أملاكه فعزم على أن يهب مابقى من حياته للسياحة فى بلاد العرب وبلاد المسلمين ليعمل على نشر دعوة الحرية • وخرج من بلاده ســـائحا فى الأرض حتى استقر بمصر وتوفى بها •

وطرأت له فكرة خطيرة وهو يجوب مشارق الأرض ومغاربها وهى أن يختار عددا من المفكرين من البلاد العربية التى ينزل بها ويدعوهم للاجتماع فى مكة • فوقع اختياره على نخبة من فضلاء قادة الفكر فى البلاد العربية وضرب لهم موعدا للاجتماع فى مكة فى موسم الحج سنة ١٣١٦ هجرية وهو يوافق سنة١٨٩٨ ميلادية،ولعل هذا الاجتماع بين قادةالفكر فى العالمالعربى هو أول مؤتمر من نوعه فى حياةالشعوب الاسلامية

الحديثة ، وسارع المدعوون جميعا الى الاستجابة لدعوة السيد الكواكبى فما وافى موسم الحج من سنة ١٣١٦ حتى توافد المدعوون الى مكة فلم يتخلف منهم الا العضو البيروتى لعارض عرض له ، فكان عدد الذين وافوا الموسم عشرة ، واتفق المؤتمرون على دعوة اثنى عشر عضوا من الحجاج من أبناء الأقطار الاسلامية والعربية التى لم يكن لها ممثلون مثل مراكش وتونس وتركيا وايران وتركستان والصين والهند ، وأطلقوا على مؤتمرهم هذا اسم « جمعية أم القرى » واستأجر السيد الكواكبى دارا فى أحد أطراف مكة ليجعلها مقرا للمؤتمر وكان الأعضاء يتسللون اليها خفية خوفا من أعين الرقباء ، وكتاب « أم القرى » عبارة عن سجل المناقشات التى دارت بين الأعضاء ، وكان السيد الكواكبى يقوم بتدوين هذه المناقشات بوصفه سكرتيرا للمؤتمر • وتوالت جلسات الاجتماع للمناقشة وكان عددها ثمانية ثم عقدت أربع جلسات أخرى لاعداد قانون أساسى لجمعية دائمة جعلت غايتها ايقاظ وعى العالم الاسلامى للحرية وسموها « جمعية تعليم الموحدين » وتعاهدوا على أن تكون جمعية سرية• ولست أستطيع فى مثل هذه الكلمة القصيرة أن أحيط بتفاصيل مادار فى هذه الاجتماعات من مناقشات عميقة بارعة تنم عن قلوب عامرة وعقول راجحة وبصيرة ثاقبة مستنيرة الى حد يدعو الى العجب والاعجاب •
لم يترك المؤتمرون معنى الا عرضوا له أحسن عرض ولم يدعوا جانبا من جوانب الحياة الافحصوه فحص الخبراء الحكماء الذين تخترق بصائرهم حجب الغيب • وان كانت لى أمنية فى هذا الصدد فان أمنيتى أن يعاد طبع الكتاب أم القرى لأنه وثيقة من أخطر وثائق التفكير والبحث ولا ينبغى لمثل هذا الكتاب أن يزول من الوجود فى هذا الوقت الذى بدأنا نحقق بعض الآمال التى ينطوى عليها • وكان المؤتمرون فى مناقشاتهم مثالا رائعا فى الاعتدال وفى أدب المناقشة وفى سعة الصدر والعقل لتقبل الآراء على اختلافها وتعارضها أو

تصادمها فى بعض الأحيان . وكان برنامج المؤتمر يحتوى على نقطتين الأولى البحث عن أسباب الفتور الذى اعترى الشعوب العربية والاسلامية وتعمدوا أن يسموه بالفتور لأنهم رفضوا أن يصفوا هذه الشعوب بالاضمحلال أو الانحلال . والنقطة الثانية هى البحث عن الطرق المؤدية الى نهوض تلك الشعوب . وقد ضمنوا قانون الجمعية التى انشأوها فى أواخر هذه الاجتماعات ملخص ما استقر عليه رأيهم فى المناقشات . وانه لمما يسترعى النظر أنهم حصروا أسباب فتور الشعوب الاسلامية فى عناصر شتى يجمعها سبب واحد كبير شامل وهو « الجهالة » كما حصروا وسائل الاصلاح فى عناصر شتى تجمعها وسيلة واحدة كبيرة شاملة وهى « التعليم » ولذلك أصدروا توصية هامة وهى عقد الجمعيات التعليمية .

ومما يسترعى النظر فوق هذا إنهم ألقوا مسئولية الاصلاح على حكماء الأمة الاسلامية ونجبائها من السراة والعلماء . ولم يداخلهم شىء من اليأس فى مستقبل أمتهم اذ جعلوا من بين قراراتهم أن ازالة الفتور الذى اعترى المسلمين منوط بالأمة العربية خاصة لأن هذه الأمة فيها الكفاية التامة للاضطلاع بهذه المسئولية الكبرى .

ولم يقفوا عند حد التوصية بذلك بل رسموا منهجا مفصلا للتعليم المطلوب وهو ينطوى على خمسة أبواب .

الأول ــ تشجيع القراءة والكتابة

الثانى ــ الترغيب فى العلوم والفنون النافعة التى من قبيل الصنائع .

الثالث ــ العمل على التخصص فى العلوم والفنون ليوجد فى الأمة عدد من النابغين المتخصصين .

الرابع ـ تيسير أصول اللغة والعلوم والفنون حتى يسهل على الناشئة تحصيلها ٠

الخامس ـ العمل على توحيد أصول العلوم وكتب الدراسة فى البلاد العربية وتشجيع التأليف للطبقات المختلفة من الناشئة مابين الطفولة والشباب حتى مرتبة التخصص ٠

ثم فصلوا فى قانون الجمعية طرق العمل على انجاح حركة النهضة بكل الوسائل ولكنهم أكدوا أن وسيلتهم هى المسالمة والموادعة والبعد عن العنف ٠

وكان من قراراتهم الأخيرة اصدار كتاب على الأقل فى كل عام ينشرون فيه آراءهم وبحوثهم وتوجيهاتهم للأمة العربية ٠ وقد بدأ السيد الكواكبى بعد انفضاض ذلك المؤتمر العظيم فى تنفيذ قرار الجمعية وكان ميدان عمله الأول فى مدينة القاهرة بمصر ٠

ففى السنة التالية نشر سلسلة من المقالات فى تحليل معنى الاستبداد وفى وصف آثاره على الأمم وأحوالها الاجتماعية والاقتصادية والفكرية ثم جمعها فى كتابه « طبائع الاستبداد » وكان يتخفى فى كتابته تحت اسم الرحالة (ك)

وقد كتب على كتابه قائلا « أهدى هذا الكتاب للناشئة العربية المعقودة آمال الأمة بيمن نواصيهم اذ لا شاب الا بالشباب ، وهكذا بدأ السيد الكواكبى أول جهاده فى تحقيق برنامج جمعية الموحدين فى مصر ٠ وكان يأمل أن يواصل جهاده حتى يرى هذا الشعب يتحرك لنيل حريته ٠ ولكن الأجل عاجله بعد طبع الكتاب بسنتين فتوفى في سنة ١٣٢٠ هجرية ٠ عليه رحمة الله ٠

ولكن برنامج جمعية الموحدين لم يمت فى البلاد العربية.ولم يمت فى مصر خاصة فقد تألفت هنا جمعيات أهلية مختلفة لنشر التعليم أنشأها الرجال المجاهــدون فى الحزب الوطنى منها مدرسة مصطفى كامل ومنها المدرسة الاعدادية التى كان لتلاميذها جهاد مشكور فى حركة التحرر فى سنة ١٩١٩ ، فكانت بذلك من عوامل تحقيق أمانى الكواكبى العظيم الــذى وقف حياته على ايقاظ الضمائر عن طريق التعليم ٠

قاسم أمين « كلمة أولى »

أحدثكم فى هذه الكلمة عن رجل من أكبر أبناء مصر ، ومفكر من أعظم مفكرى الشرق فى عهد النهضة الأولى التى بدأت فى أواخر القرن الماضى وأوائل هـــــذا القرن العشرين • بل لست أبالغ اذا قلت انه واحد من أكبر من ظهر فى العالم كله • من المفكرين فى مدة الخمسين عاما الماضية ذلك هو قاسم أمين •

والذى يتبادر الى الأذهان عادة عندما يذكر اسم قاسم أمــين أنه الرجل الذى قام لأول مرة فى بلاد الشرق لينادى برفـع النقاب عن وجـــوه النســـاء ويطالب بخروج المرأة من عزلتها واطــلاق حريتها أى أنه كان الرجل الذى تزعم الحركة النسائية قبل أن تنهض المرأة نفسها لتتزعم حركة تحرير نفسها •

ولكن هذا التصور بعيد كل البعد عن حقيقة قاســم ـ لأنه كان أكبر وأعظم وأعمق من أن يكون زعيما عمليا لفكـرة محدودة • كان قاسم أمين واحدا من مجموعة نابغة ظهرت فى أعقاب الثورة العرابية وكان لها طابع خاص يختلف كل الاختــلاف عن طابــع المتزعمين فى الحيــاة العامة • كان بعيــدا عن أصحاب النفوذ والسلطــان الأعــلى لا علاقة له بالسراى ولا علاقة له بأساطين الاحتلال ولم تكن له مطامع فى زعامة ولا في رياسة وكان ميدانه الوحيد الذى يشغل كل اهتمامه ميدان الفكر الفسيح ويمكننا من أن نعرف شخصيته من كتاباته معرفة أتم وأوضح من معرفتها عن طريق تاريخ حياته ، وقد طبع له كتـــاب صغير فى العام الذى توفى فيه ـ أى عام ١٩٠٨ ـ تحت اسم «كلمات» وفيه مجموعة من الآراء والنظرات تدل دلالة واضحة على المــلامح

الفكرية والنفسية لذلك المفكر الحر . وكان طبع هـــذا الكتاب فى مطبعة « الجريدة » وهى صيحفة الفـكر الحر التى كان يوجههـا فى أوائل هذا القرن العشرين معلم مصر الكبير الأستاذ أحـمد لطفى السيد بارك الله للأمة فيه .

ونجد في الصفحة الأولى من الكتاب صورة الرجل ومن تحتها كلمة من كلماته يمكن أن نعدها الشعار الــذى التزمه طوال حياته وهى قوله :

« اللذة التى تجعل للحياة قيمة ليست حيازة الذهب ولا شرف النسب ولاعلو المنصب ولاشيئا من الأشياء التى يجرى وراءها الناس عادة وانما هى أن يكون الانسان قوة عاملة ذات أثر خالد فى العالم »

ففى هذه الكلمة يمكن أن نجد المفتاح الصحيح لشخصية هـــذا الرجل الفذ بكل مافيه من عمق وكل مافيه من قوة .

ولا يسعنا ونحن نقرأ هذه الكلمات الا أن نلمـح بعض الحقائق الهامة المتصلة بشخصيته ـ الأولى أنه كان من أصـــحاب الايمـان العميق الذين يحملهم ايمانهم على التضحية بكل شىء حتى بمحبة الناس له فى سبيل الجهر بالعقيدة التى يؤمن بها .

قال فى احدى كلماته :

« ليس الايمان مسألة عقلية أو علمية فانا نرى بين العلـماء من يصدق كما نرى بين الجلاء من يكذب . وانمـا الايمان مسألة شـعور يجعل صاحبه يرى نفسه محتاجا اليه الى حد أنه يستحيل عليه أن يعيش بدونه .

وقال فى كلمة أخرى :

« من اختيارى لأرباب الفكر الذين اختلطت بهم ليظهر لى أن الحمية عندهم سطحية لاتذكيها نار تتوقد فى القلب ـ حمية ألفاظ متى انتشرت عادت هباء لا تترك أثرا بعدها »

وقال :

« فى الكتب والجرائد والمجلات أرى الكاتب يعتمد على التملق لجمهور القراء أكثر من غايته بابداء فكره · ولكن الكاتب المحب لفنه ينشر أفكاره كما هى · ينشر الحقيقة منزهة عن الزيادة والنقصان لا يقبل أن يبدل فيها أو يغير منها أو يتنازل عن حرف مراعاة لأى أمر كان · هو العاشق الذى يعتقد الكمال فيما يحبه · ولا يتصور وجود شيء يعادله ولايبالى بندم الناس بل يجد فيه نوعا من حماسة الغضب منبها لأعصابه منشطا لقواه مغريا له على الاستمرار والثبات »

والحقيقة الثانية أن قاسم أمين من أرق الناس حسا وأكبرهم قلبا وأكثرهم حبا للانسانية وللناس وهذا يظهر فى كلماته ظهورا جليا · وهو واسع العقل لا يريد أن يفرض رأيه على الناس بل يدعوهم الى المناقشة العادلة للوصول الى الحقيقة ·

يقول فى بعض كلماته :

« كل مباحثة مفيدة اذا كان الغرض منها اظهار الحقيقة ، ولكنك لا تجد الا شخصا يريد أن يعلمك ماليس له به علم ولا يصغى الى شيء مما تقوله لأنه ليس مشتغلا الا بما يقوله » ·

ثم يعود فيقول :

« وجدت السآمة غالبا فى الاجتماعات وما شعرت بها فى الوحدة · اشتاق الى الناس فاذا اختلطت بهم رأيت وسمعت مايزهدنى فيهم فأفر منهم وأرجع ملتجئا الى نفسى فأجد فيها الراحة والسكون »

ومن الكلمات التى تدل على سعة قلبه وايمانه العميق بالمحبة والاخلاص هذه الكلمة القصيرة :

« كتبت والدة من قدماء المصريين على قبر ابنها « من انتهك حرمة هذا القبر فليكن آخر من يموت من يحبهم .. كلمة يفزع من هوالها كل من فارق عزيزا محبوبا »

والحقيقة الثالثة المتصلة بشخصيته انه كان يشعر شعورا قويا بأنه يعيش فى غير زمانه . كان يحب الناس ولكنه كان لا يشعر بالأنس فى مجالسهم . وكان يحب الوصول الى الحقيقة ولكنه كان لايجد من يريد البحث عن الحقيقة . وكان يقصد الى تحقيق مصلحة قومه وتنوير أذهانهم ولكنه كان لا يجد حوله الا قوما يبحثون عن مصالح أنفسهم .

ولكن قاسم أمين كان ينطوى أيضا على حقيقة أخرى ذات دلالة عظيمة على قوة شخصيته فقد وجد أن آراءه الحرة التى قصد بها تنوير الأذهان وانهاض الهمم لم تقابل الا بالانكار ولم تناقش بالانصاف ووجد أن خصومه أخذوا يقاومونه بالهجوم الشخصى واثارة سخط الجماهير حتى لقد بلغ بهم الأمر الى اتهامه بالخروج على الدين وثارت فى وجهه عاصفة من أعنف ماثار من عواطف الجدال والاحتجاج . فثار قاسم أمين الهادىء المرهف الحس الذى لا يعرف العنف وانبرى لخصومه قويا صارما يتحدى العاصفة . ثابتا راسيا واحتفظ بأسلوبه المهذب كما يصارع العملاق الواثق بنفسه . وهو يعبر عن شعوره ازاء هذه المعركة بكلمة من كلماته الموجزة قائلا :
« اذا رأيت الرأى العام معاديا لكاتب وأعد له خصوما يتسابقون الى نقض أفكاره وهدم مذهبه وعلى الخصوص اذا رأيتهم ذهبوا فى مطاعنهم الى السب والقذف فتحقق أنه قد طعن الباطل طعنة مميتة ونصر عليه الحق»

ثم قال بعد ذلك :

ثم قال بعد ذلك :

« لو انتظر المصلحون دائما رضاء الرأى العام لما تغير العالم عما كان عليه من زمن آدم وحواء »

ويمكننا أن نلخص فلسفة قاسم أمين الاصلاحية فى أنه كان يؤمن أن الاصلاح لايمكن أن يتم عن طريق التربية وتنوير الأذهان ووسائل الاقناع المختلفة التى تؤدى الى تغيير عقول الناس ونفوسهم وقال فى ذلك :

« كلما رأى الناس أن حالتهم العمومية أصبحت على غير ما يحبون ظنوا أن العيب فى النظام لا فى الرجال وفكروا فى وضع قواعد جديدة للسياسة والادارة والقضاء مؤملين أن يجدوا فى ذلك الاصلاح الكبير ومثلهم فى ذلك كساكن بيت ضعضعت جسمه الرطوبة فأراد أن يتخلص منها فغير أثاث البيت ورتبه على غير الشكل الأول وهذا تعب ضائع » .

من أجل هذا وقف قاسم أمين كل حياته على تنوير العقول فكتب كثيرا وتكلم فى مجالسه الخاصة كثيرا وكان يجد فى كتاباته وأحاديثه أكثر متعة لأنه كان يجد فيها تحقيقا للغاية التى وقف حياته عليها وهى ازالة غشاوات الجهل عن العقول تمهيدا لازالة نير الطغيان عن الأعناق . كان يؤمن بأن البلاد تشكو من علل كثيرة تسبب ضعفها وعجزها عن مسايرة ركب المدنية وكان يحس فى أعماق نفسه بالمضاضة الشديدة من تحكم الاحتلال فى مصير وطنه ولكنه كان يرى أن العلة الأولى وسبب الضعف الأكبر هما ضعف الشعب نفسه وفقدان الوعى بين صفوفه . فاعتقد أن معركته الكبرى يجب أن تكون ضد الجهالة وضد الجمود وكان ابتداء المعركة عندما نشر كتابه الأول « تحرير المرأة » وأحدث الكتاب أثره الشديد فى البلاد فكان بمثابة صدمة قوية للأفكار الشائعة والمبادىء البالية التى كان الجميع يسلمون بها بغير تفكير . وكانت نتيجة نشر هذا الكتاب قيام العاصفة

الشديدة التى أشرنا اليها فى بدء هذا الحديث وهى العاصفة التى أثارها عليه كل من لهم مصلحة فى بقاء الطغيان الفكرى والطغيان السياسى فى البلاد وساعدهم كل من لهم مصلحة فى بقاء العقائد الفاسدة والجهالة العمياء ، فلم تزعزعه هذه العاصفة ونشر كتابا آخر فى سنة ١٩٠٠ يواصل فيه حملته العنيفة على الجهالة والطغيان وهو كتاب « المرأة الجديدة » واستمرت المعركة بينه وبين خصومه متوقدة فلم ينطفىء لهيبها حتى مات فى وسط الميدان فى أبريل سنة ١٩٠٨ .

وموضوع الكتابين واحد وان كان بينهما فارق كبير فى المادة والطريقة . فكتاب تحرير المرأة يغلب عليه التفكير النظرى الذى ينظر الى المبادىء العامة الكبرى وكتاب المرأة الجديدة يغلب عليه الوصف الواقعى والتحليل المنطقى . ولكن كلا من الكتابين وان كان يحمل عنوان « المرأة » لا يتحدث فى الحقيقة الا عن الأمة . ومن الضرورى لنا اذا أردنا أن نعرف حقيقة قاسم أمين أن نتحدث فى شىء من الافاضة عن الآراء التى أودعها المفكر الكبير فى كل من هذين الكتابين .

ولنا عودة اليهما فى حديث جديد .

قاسم أمين « كلمة ثانية »

كل من يتأمل أحوال الشعوب فى حالاتها المختلفة بين الركود والنهوض وبين الجمود والتيقظ لا يسعه الا أن يسأل نفسه عن الأسرار الخفية التى تعمل فى تلك الجماهير الكبيرة التى تكون مجموع هذه الشعوب فتجعلها فى بعض الأحيان سريعة الى الاستجابة لعوامل التقدم وتجعلها فى بعض الأحيان بطيئة متراخية تكاد تكون يائسة • والذين يحاولون تفسير حركات الشعوب بالعوامل المادية أو الاقتصادية وحدها يغفلون عاملا من أقوى العوامل الانسانية وهو القلب البشرى •

اننا قد نتأثر أفرادا وجماعات بالعوامل الاقتصادية وبالظروف المادية التى تحيط بنا ولكن تأثرنا بها يكون عن طريق غير مباشر بواسطة تأثير هذه العوامل فى مشاعرنا وأفكارنا وعقائدنا • فالذى يظهر لنا واضحا فى أخبار الشعوب كلها أن الاتجاهات الفكرية والعاطفية هى العامل الأول فى توجيه الجنس البشرى • ومن هنا تظهر لنا أهمية عظماء المعلمين وزعماء الحركات القومية وابطال الحرية الذين كان لهم الفضل الأعظم فى تقدم الشعوب الانسانية فى كل أركان الأرض •

وقد كان قاسم أمين أحد هؤلاء العظماء لأنه استطاع أن يحرك مشاعر الشعب المصرى ويبعث نهضة عظيمة فى أفكاره ويفتح أمامه نافذة واسعة تطلق نظرته الى رحاب المستقبل الفسيح • ولكنه كان يعرف أن الأفق الذى يحلق فيه أعلى من فهم جماهير الشعب فى وقته وكان يعرف أن هناك قوما يهمهم بقاء الحالة الفكرية

على ماكانت عليه اما لعجزهم عن ادراك المرامى البعيدة العالية التى كان قاسم أمين يهدف اليها واما عن سوء نية لأنهم كانوا يعرفون أنهم يستمدون سيطرتهم وسلطانهم على الشعب من سيطرة الجمود الفكرى عليه • كانت هناك طائفة من المصريين فى ذلك الوقت يتعلقون بآراء القرون الوسطى ويعادون كل من يريد اخراج الأمة من عقلية القرون الوسطى لأنهم كانوا يستمدون سيادتهم على الناس من سيادة هذه العقلية الجامدة •

ومن المآسى الانسانية الكبرى أن الشعوب التى تقضى زمنا طويلا تحت حكم الاستعباد والأستبداد تتولد فيها أنواع من السموم النفسية والخلقية تجعل بعض الأفراد يؤمنون بعبوديتهم ولا يريدون أن يتحولوا عنها بل يستخدمون فى دفاعهم عن عبوديتهم كل الوسائل الممكنة مهما بلغت من الدناءة والشناعة • فاستطاع المغرضون الذين يحرصون على بقاء الاستعباد والاستبداد أن يثيروا على قاسم أمين عاصفة من أشد العواصف وأقساها بعد أن أخرج كتابه الأول «تحرير المرأة » واذا كان هؤلاء المغرضون قد اتخذوا عنوان الكتاب وسيلة لاستخدام عوامل الجمود والرجعية ضد قاسم أمين فان الذى أزعجهم فى الحقيقة لم يكن حقيقة ماجاء فى الكتاب • لأن هذا العنوان الذى اختاره قاسم أمين لكتابه كان لا يدل على حقيقة كتابه • فالحقيقة التى كان الكتاب ينطوى عليها والحقيقةالتىأزعجت أصحاب العقلية الرجعية وأنصار الاستعباد انماهىصرختة العالية التى نادى بها فى سبيل تربية الأمة المصرية وتحريرها • فنحن اذا قرأنا كتاب تحرير المرأة فىوقتنا هذا بعد أن بعد العهد بيننا وبينه لم نجده يتعرض للمرأة الا عرضا وكل حديثه منصرف الى تربية الأمة وتحريرها •

فهو يبدأ مقدمة الكتاب متحدثا عن قصده بكل صراحة قائلا انه يريد أن يستلفت الذهن الى موضوع قل عدد المفكرين فيه لا أن يضع كتابا يوفى الكلام فى شأن المرأة •

وهو يقول أنه لا يريد سوى تحويل النفوس الى وجهة الكمال وان كل تغيير يحدث فى أمة من الأمم ليس بالأمر البسيط بل هو مركب من ضروب كثيرة من التغيير ولا يحدث الا تدريجيا حتى يظهر آخر الأمر فى نشأة أخرى للأمة اذا طرأ التغيير الكافى على مجموع أفرادها ٠

وهو يقول ان الأمة المصرية محتاجة الى اصلاح شئونها وان مسئولية هذا الاصلاح واقعة على عاتق المتعلمين من أبنائها وانه لا ينبغى لهم أن يقعدوا عن السعى فى ذلك الاصلاح مهما كلفهم من العناء ٠

هكذا يبدأ قاسم أمين كتابه فى المقدمة ٠ ثم يبدأ الفصل الأول متحدثا عن عوامل تقدم الجنس الانسانى ويتحدث عن عوامل تقدم الأمم واثر تقدمها العقلى فى عاداتها وآدابها ومرافق حياتها ٠ ولا يبدأ بالتعرض لذكر المرأة الا عرضا عندما يتحدث عن التلازم الذى بين انحطاط الأمة فيستطرد من ذلك الى الحديث عن الآثار الاجتماعية الخطيرة التى تترتب على انحطاط شأن المرأة والعلاقة بين ذلك الانحطاط وبين استبداد الحكم فيمضى فى التحدث عن مظاهر الاستعداد وآثاره فى حياة المجتمع وعن مظاهر نظام الطبقات وما أدى اليه ترف السادة من الانحطاط بالحياة العامة مبينا أن هذا الانحطاط كان أساسه اهدار كرامة المرأة واتخاذها وسيلة للمتعة وانحطاطها بذلك الى مرتبة الأشياء المملوكة مع أنها هى الشريكة الانسانة التى خلقها الله لتكون وعاء للبشرية ٠

وهو يتحدث فى الفصل التالى عن التربية عامة ولا يتعرض للمرأة الا على أنها جزء من الأمة لا يمكن أن تغفل تربيتها بسبب قسوة التقاليد وبسبب انحطاط النظر الى المرأة ٠

هكذا يتنقل قاسم أمين فى كتاب تحرير المرأة من فصل الى الى آخر متحدثا عن حياة الأمة في مجموعها وعن مقومات حياتها التى

تعمل على نهضتها وعن التربية الصحيحة وعن معنى العدالة الاجتماعية وعن معنى العدالة السياسية وعن معنى السعادة فى الأسرة والسعادة فى المجتمع وهو فى كل ذلك ينظر الى الأمة نظرة شاملة لا يفرق فيها بين الرجل والمرأة ثم يعطف أحيانا على المرأة فيقول انها جزء من الأمة وانها الجزء الأخطر فى حياة الأمة فلا ينبغى لها أن تكون فى عزلة عن كل حركة يراد منها اصلاح هذه الأمة .

ومن الأمور الممتعة أن نقرأ اليوم فى امعان ماكتبه قاسم أمين فى موضوع التربية فى ثنايا كتابه الذى ألفه منذ خمسين سنة . فهذه الآراء التى يسجلها الرجل الكبير فى التربية منذ خمسين عاما جديرة بأن تكون اليوم دستورا صالحا لنا فى هذا العصر الذى خطت فيه التربية خطوات واسعة فى مصر وفى كل بلاد العالم ولا شك فى أن ذكاء هذا الرجل الفذ يؤهله لأن يعد فى مقدمة رواد التربية الصحيحة اذا ماأردنا كتابة تاريخ الفكر التربوى فى بلادنا .

فهو يقول فلا : « أرى همم الناس موجهة الى التعليم ولا أرى أحدا يلتفت الى تربية النفوس وأرى أن الحرص على التعليم منحصر فى تعليم الذكور مع أن تهذيب الأخلاق مقدم على التعليم وتعليم البنات مقدم على تعليم الذكور » .

وهو يتحدث فى موضع آخر عن وظيفة التربية فى نجاح الأمة فى معركة منازع البقاء مع الأمم الأخرى فيقول « اذا تعلمت الأم كما يتعلم مزاحموها وسلكت فى التربية مسلكهم وأخذت فى الاعمال مآخذهم وتدرعت للكفاح بمثل ماتدرعوا به أمكنها أن تعيش بجانبهم بل تيسر لها أن تسابقهم ... وهذه الطريق ـ طريق النجاة ـ مفتوحة أمامنا ولا يوجد عائق يعوقنا عن السير فيها الا مايكون من أنفسنا . فان كان للمصريين همة وصدق عزيمة فى طلب سعادتهم والمحافظة على بقائهم والسعى الى خلاصهم ونجاتهم من التلكهة فعليهم أن يسلكوا تلك الطريق .. وليعتمدوا على أنفسهم ولا يضيعوا أوقاتهم

فى الأمانى الباطلة يلتمسون تحقيقها من حكومتهم • فان حكومتهم لا تستطيع من العمل الا قليلا أما هم فانهم يستطيعون أن يأتوا فى اصلاح شئونهم بالجم الكثير • هكذا كان قاسم أمين يتحدث ومن أجل هذا قامت العاصفة الشديدة قاسى منها كثيرا من الضيق وكثيرا من الألم • ولكنه لم يترك سلاحه بل جرده لاستئناف المعركة وكتب كتابه الثانى « المرأة الجديدة » وهو بمثابة الرد على خصومه الذين أثاروا عليه العاصفة وفيه رسم صورة كاملة شاملة لما ينبغى أن تكون عليه المرأة فى الأمم الناهضة وأهاب بالمصريين أن ينهضوا بالمرأة المصرية حتى تبلغ شأو أخواتها فى البلاد المتقدمة تمهيدا لبلوغ مصر شأو تلك البلاد المتقدمة •

وقد أفاض في هذا الكتاب الثانى فى الكلام عن الحجاب من النواحى الشرعية والاجتماعية والعملية كما أفاض فى الكلام عن حقوق المرأة الانسانية وواجباتها ووظيفتها فى الأمة • ولم ينس أن قصده الأول من كل كتابته ليس الانتصار للمرأة بل تنبيه أذهان مواطنيه الى وسائل النهوض القومى الصحيح عن طريق التربية الشاملة للبنين والبنات • فكان بذلك فى كتابيه الاثنين زعيما فكريا ومربيا من أكبر رواد التربية الحديثة • ومما يسترعى النظر أن أسلوبه كان عفا سمحا برغم الهجمات العنيفة التى شنها عليه خصومه ، فهو يتحدث فى كتاب المرأة الجديدة قائلا :

« لا نرى سببا للخلاف بيننا وبين مناظرينا الا الاختلاف فى فهم معنى التربية فهم يرون أن التربية هى التعليم وذلك يتم على رأيهم بمكث الصغير فى المدرسة سنين محدودة للحصول على الشهادة الدراسية ••• ونحن على خلاف ما رأوا نعتقد أن التربية انما تكون بكل ما يستفيده الصبي فى أيام التحصيل لتكميل عقله وخلقه » •

ويقول فى موضع آخر « التجارب هى أساس العلم والأدب الحقيقية » .

وانا لنعجب مع ما سجله هذاالرجل العبقرى فى كتبه الثلاثة كيف لم يفطن المصريون الى مكانته الحقيقية من حياتهم الحالية فاننا اذا أردنا أن نعرف معالم نهضتنا الفكرية وأن نعرف حقيقة أصولها كان علينا أن نضع قاسم أمين فى الصف الأول من زعماء الحرية الفكرية لأنه الرجل الذى ضحى بكل شىء حتى مكانته الاجتماعية فى سبيل أداء رسالة مقدسة عنده . لقد كان قاسم أمين يستطيع أن يبلغ فى عصره ذروة المجد الدنيوى لما كان عليه من رقة الحاشية وتهذيب الطبع وعلو الهمة وسعة العلم ولكنه خاطر بكل ذلك ولم يتردد فى مصادمة أصحاب النفوذ والسلطان وعمله على أن يفتح أعين الشعب للحقائق الكبرى فى الحياة . وقد كانت مكافأته عظيمة برغم ماقاساه من هجمات خصومه وان كان قد توفى قبل أن يرى أثر نجاح جهاده كانت مكافأته أن الأمة المصرية اليوم تسير على الخطوط التى رسمها لهم منذ خمسين عاما .

عمر بن الخطاب   الغزالي

علي بن أبي طالب   ابن خلدون

خالد بن الوليد   أبو بكر الصدّيق

عائشة بنت أبي بكر   أبو حنيفة النعمان

عبد الله النديم   عمر بن عبد العزيز

بقلم

مهدي علّام

عمر بن الخطاب

كان النبى صلى الله عليه وسلم يدعو الله تعالى أن يعز الاسلام بعمر • وكان هذا الفتى الذى تتطلع الدعوة الجديدة لانضمامه اليها معروفا فى قومه بالقوة والشدة وعزة الجانب ، وان لم يكن ثريا ، فقد كان قليل المال يتاجر به أحيانا •

ولقد كان ايمان عمر بعد فترة غير قصيرة من المعارضة • فكما أن النفس راضية تقبل الدعوة الطيبة لساعتها ، كما فعل أبو بكر رضى الله عنه ، كذلك النفس القوية تأبى أن تقبل الدعوة الجديدة الا بعد جهاد مع النفس واختيار قاس للدعوة • وقد ظهرت دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وعمر فتى فى العشرين من عمره ، فى سن الاعتداد بالنفس ، والتأبى على ما يخرج به عما ألفه • وظل ست سنوات يصارع نفسه حتى نفذ شعاع الاسلام الى قلبه •

وقد تحدث عن سبب اسلامه فقال : كنت من أشد الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبينا أنا يوما فى يوم حار شديد الحر بالهاجرة فى بعض طرق مكة اذ لقينى رجل من قريش ، فقال : أين تذهب يا ابن الخطاب ؟ أنت تزعم انك هكذا وقد دخل عليك هذا الأمر فى بيتك ؟

قلت : وماذاك ؟ قال : أختك قد صبأت • قال عمر :

فرجعت مغضبا ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجمع الرجل أو الرجلين إذا أسلما عند الرجل به قوة فيكونا معه ، ويصيبان من طعامه ، وكان قد ضم الى زوج أختى رجلين ، فجئت حتى قرعت

الباب ، فقيل من هذا ؟ قلت : ابن الخطاب . وكان القوم جلوسا يقرأون القرآن الكريم فى صحيفة معهم . فلما سمعوا صوتى تبادروا واختفوا ، وتركوا أو نسوا الصحيفة من أيديهم . فقامت المرأة ففتحت لى ، فقلت : ياعدوة نفسها ، قد بلغنى انك صبوت . فأرفع شيئا فى يدى فأضربها به ، فسال الدم ، فلما رأت المرأة الدم بكت ثم قالت : يا ابن الخطاب ، ماكنت فاعلا فافعل ، فقد أسلمت .

فدخلت وأنا مغضب فجلست على السرير فنظرت فاذا بكتاب فى ناحية البيت ، فقلت ماهذا الكتاب ؟ أعطنيه . فقالت لا أعطيك ، لست من أهله .. وهذا لا يمسه الا المطهرون . فلم أزل بها حتى أعطتنيه ، فاذا فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، فلما مررت بالرحمن الرحيم ذعرت ورميت بالصحيفة من يدى ، ثم رجعت الى نفسى ، فاذا فيها : « سبح لله ما فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم » .

فكلما مررت باسم من أسماء الله عز وجل ذعرت ، ثم ترجع الى نفسى ، حتى بلغت : « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » حتى بلغت : « ان كنتم مؤمنين » فقلت : أشهد ألا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله .

وهكذا بدأ عمر اسلامه فى معركة أسال فيها دما ، وظل بعد ذلك المسلم الفدائى الذىلا يبالى أى دم أراق فى سبيل الحق ، وانتهى بأن سال دمه هو فى سبيل الاسلام . لقد ظل عمر منذ تلك المعركة الأولى يوم اسلامه فى معارك متواصلة ، كأنما كان يكفر بها عن تلك المعركة — معارك بينه وبين نفسه حتى خلصها من شهواتها ، ومعارك مع رعيته من المسلمين حتى استقام أمرهم للدين ، ومعارك مع أعداء الدين حتى أنصف الدين منهم .

هذا الفتى الصارم العنيف ينبعث أول شعاع من أشعة الاسلام فى قلبهعن طريق لفظ الرحمة ، فقد ذعر عندما مر باسم الرحمن الرحيم

وقد تضاءل جبروته عندما مر بقوله تعالى « وهو العزيز الحكيم » .
وكأنما كان ذلك ايذانا بأن شدة عمر ستخضع لرحمة الايمان ، وتعنو لعزة الرحمن . وكذلك كان عمر .

وكما دخل عمر فى الاسلام جهرة ، ومكافحا ، كذلك خرج عمر من مكة مهاجرا الى المدينة جهرة ومكافحا .

روى على رضى الله عنه قال : ما علمت أن أحدا من المهاجرين هاجر الا متخفيا ، الا عمر بن الخطاب ، فانه لما هم بالهجرة تقلد سيفه ، وتنكب قوسه ، وانتضى فى يده أسهما ... ومضى قبل الكعبة والملأ من قريش بفنائها ، فطاف بالبيت سبعا ، ثم أتى المقام فصلى متمكنا ، ثم وقف على الحلق واحدة واحدة وقال لهم : شاهت الوجوه ! لايرغم الله الا هذه المعاطس . من أراد أن تثكله أمه ، وييتم ولده ، وترمل زوجته فليلقنى وراء هذا الوادى . قال على : فما تبعه أحد الا قوم من المستضعفين علمهم وأرشدهم ومضى لوجهه .

فكما دخل عمر فى الاسلام فى معركة ، خرج عمر من مكة وهو مستعد لمعركة ، ولكنها كانت معركة ينشدها مع سادات قريش وأبطالها ، لا مع المستضعفين .

وتولى عمر الخلافة والدولة تتسع فى رقعتها ونفوذها فليس عجيبا على رجل فى مثل عدله أن يعنى فى وصاياه لعماله وقواده بالسياسة والقضاء . ولكن أهم مايسترعى نظر الدارس فى هذه الوصايا عنايتها بأهل الذمة .

فالدولة اليوم فى طور تكون ، والمجتمع مزيج من مسلمين وذميين ، وقواعد العدالة فى حاجة الى توطيد . لذلك ترى عمر يوصى مكررا فى وصاياه لعماله أن يحسنوا رعاية أهل الذمة . ففى وصيته لعمرو بن العاص مثلا يقول : « واعلم يا عمرو أن الله يراك ويرى

عملك ٠٠٠ وأن معك أهل ذمة وعهد ، وقد وصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم ، وأوصى بالقبط فقال « استوصوا بالقبط خيرا فان لهم ذمة ورحما » ٠٠٠ وقد قال صلى الله عليه وسلم : « من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته فأنا خصمه يوم القيامة ، احذر يا عمرو أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم لك خصماً فانه من أخاصمه خصمه ٠ والله يا عمرو لقد ابتليت بولاية هذه الأمة وآنست من نفسى ضعفا ، وانتشرت رعيتى ، ورق عظمى ، فأسأل الله أن يقبضنى اليه غير مفرط ٠ والله انى لأخشى لو مات جمل بأقصى عملك ضياعا أن أسأل عنه يوم القيامة » ٠

وفى سبيل النهوض بهذه الأعباء لجأ عمر الى الشورى طلبــا لفائدتها ، وابراء لذمته ، وتدريبا للمسلمين من بعده ٥

خطب يوما فقال : « ان الله عز وجل قد جمع على الإسلام أهله فألف بين القلوب ، وجعلهم فيه اخوانا ٠ والمسلــمون فيما بينهم كالجسد لايخلو منه شيء من شيء أصاب غيره ٠

وكذلك يحق على المسلمين أن يكونوا أمرهم شورى بينهم وبــين ذوى الرأى منهم ، فالناس تبع لمن قام بهذا الأمر ٠ ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناس وكانوا فيه تبعا لهم ٠ ومن قام بهذا الأمر تبع لأولى رأيهم ما رأوا لهم ورضوا به لهم » ٠

ومما يدل على بعد نظره ، ودقته ، وتحريه ، ورغبته فى ضــبط شــئون الدولة حتى لا تكون عرضة للضياع أو التلاعب ٠ أنه اتخذ تاريخا ثابتا ـ هو هجرة الرسول ٠ وانه دون الدواوين على نظام لم يكن به عهد ٠ ويتجلى اتساع أفقه وعدم تعصبه فى أنه بدأ الدواوين بلغات أجنبية تمهيدا لتعريبها حينما ينشأ الجيل الذى يتقن أعمالها بالعربية ٠ واليه يرجع الفضل فى عمل أول احصاء للنــــاس فى الاسلام ٠

ولم يكن عمر يخشى فى الله لومة لائم · لقيه رجل من قريش مرة فقال له الرجل : لن لنا فقد ملئت قلوبنا مهابة ·

فقال عمر : أفى ذلك ظلم ؟ قال : لا · فقال عمر : فزادنى الله فى صدوركم مهابة ·

وهذه المهابة التى كانت تملأ قلوب أصحابه كانت تملأ قلبه كذلك ، منذ تلك اللحظة التى لحقه فيها الذعر عندما كان يمر بأسماء الله تعالى وهو يتلو الآيات التى كانت سبب اسلامه · رووا أن نفرا من المسلمين كلموا عبد الرحمن بن عوف فقالوا : كلم عمر بن الخطاب فانه قد أخشانا حتى والله مانستطيع أن نديم اليه أبصارنا · فلما أبلغه عبد الرحمن ذلك قال : أوقد قالوا ذلك ؟ فوالله لقد لنت لهم حتى تخوفت الله فى ذلك ، ولقد اشتددت عليهم حتى خشيت الله فى ذلك · وأيم الله لأنا أشد منهم فرقا منهم منى ·

ولم تكن هذه المهابة ليخشاها فريق من الناس ويحتمى وراءها فريق آخر · وانما كانت تسوى بين الناس جميعا ·

جاء اليه رجل من أهل مصر فقال : سابقت ابن عمرو بن العاص فسبقته فجعل يضربنى بالسوط ، ويقول : أنا ابن الأكرمين · فكتب عمر الى عمرو يأمره بالحضور هو وابنه فحضرا · فقال عمر للمصرى خذ السوط فاضرب · فجعل يضربه بالسوط وعمر يقول : اضرب ابن الأكرمين ·ثم قال لعمرو : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ فقال عمرو : يا أمير المؤمنين لم أعلم ولم يشك الى المصرى ·

وبعد فماذا أنا قائل فى بضع دقائق عمن خلف للاسلام وللعالم تراثا من التشريع والسياسة والأخلاق ما زلنا نقتبس منه الهدى ؟ ولكننى أحب أن أختتم حديثى بالاشارة الى حادثتين فى تاريخ هذا

البطل النادر المثال فى انكار الذات ، وفى الرجوع الى الحق ، وسأترك شاعر النيل حافظ ابراهيم يتحدث عنهما فى عمريته الخالدة :

أما احداهما فهى حادثته مع زوجته حين اشتهت الحلوى ، واقتصدت من نفقة البيت ما يكفى لشرائها :

يوم اشتهت زوجه الحلوى فقال لها:	من أين لى ثمن الحلوى فأشريها
لا تمتطى شهوات النفس جامحة	فكسرة الخبز عن حلواك تجزيها
وهل يفى بيت مالى المسلمين بما	توحى اليك اذا طاوعت موحيها ؟
قالت : لك الله، انى لست أرزؤه	مالا لحاجة نفس كنت أبغيها
لكن أجنب شيئا من وظيفتنا	فى كل يوم على حال أسويها
حتى اذا ما ملكنا ما يكافئها	شريتها ثم انى لا أثنيها
قال اذهبى واعلمى ان كنت جاهلة	أن القناعة تغنى نفس كاسيها
وأقبلت بعد خمس وهى حاملة	دريهمات لتقضى من تشهيها
فقال : نبهت منى غافلا ، فدعى	هذى الدراهم اذ لا حق لى فيها
ويلى على عمر يرضى بموفية	على الكفاف وينهى مستزيديها !
مازاد عن قوتنا فالمسلمون به	أولى فقومى لبيت المال رديها

وأما الثانية فهى ما روى من أنه تسور الحائط على جماعة يشربون الخمر فقالوا له : تلومنا على ارتكاب معصية واحدة وترتكب ثلاث معاص : دخلت علينا من غير الباب والله يقول : « وأتوا البيوت من أبوابها » ودخلت بغير استئذان ، والله يقول : « يا أيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها » وتجسست علينا والله يقول : « ولا تجسسوا »

يقول حافظ فى تصوير هذه الحادثة :

وفتيـــة ولعوا بالراح فانتبـــذوا لهم مكانا ، وجـــدوا فى تعاطيها
ظهرت حـــائطهم لمـــا علمت بهم والليل معتكر الأرجاء ساجيهـــا
حتى تبينتهم والخمر قد أخـــذت تعـــلو ذؤابة ساقيها وحاسيها
سفهت آراءهم فيـــها فما لبثوا أن أوسعوك على ما جئت تسفيها
قالوا : مكأنك ، قد جئنا بواحدة وجئتنـــــا بثـــلاث لا تباليها
فأت البيوت من الأبواب ياعمر فقـــــد يزن من الحيطان آتيها
واستأذن الناس أن تغشى بيوتهم ولا تلم بـــــدار أو تحييهـــــا
ولا تجسس فهذى الآى قد نزلت بالنهى عنه ، فلم تذكر نواهيها
فعدت عنهم وقد أكبرت حجتهـــم لمـــا رأيت كتـــاب الله يمليهـــا
وما أنفت وان كانوا على حـــرج من أن يحجك بالآيات عاصـــيها

وبعد فهذه لمحات خاطفة من سيرة بطل الاسلام الاعظم نرجو ألا نقف لديها موقف المتعة العقلية الأدبية ، بل نتجـــاوز ذلك الى الاقتداء بها فى حياتنا الشخصية والعامة ·

علي بن أبي طالب

سنقضي الليلة فترة مع بطولة شاملة نادرة ، تمثلت فيها القوة بأجلى معانيها . والبطولة هي القوة في نواحي العظمة التي اتفق الناس على تمجيدها . وقد تمثلت القوة في سيدنا علي بن أبي طالب — رضي الله عنه — في جميع نواحي العظمة .

تمثلت فيه بسطة في الجسم ، ووجاهة لاتقتحمها العين ، وشجاعة دفعته الى مقدمة الصفوف في كل معركة خاضها مع الرسول الكريم ، وبسالة أنزلت الرعب في قلب منازله ، وانتهت بهزيمة مقاتله .

وتمثلت فيه بسطة في العلم والدراية ، حتى ضرب به المثل في حل المشكلات فقيل : قضية ولا أبا حسن لها .

وتمثلت فيه القوة عمقا في الايمان ، ونفاذا في البصيرة ، ورسوخا في التقوى ، فكان أحد الاربعة السابقين الى الايمان برسالة النبي الكريم ، كما كان الفتى الراسخ الايمان الذي تقدم ليلة الهجرة لينام في فراش النبي — صلى الله عليه وسلم — معرضا نفسه للهلاك في سبيل نصرة نبيه .

وتمثلت فيه القوة سعة في الحلم وشمولا في السماحة حتى مع خصومه وأعدائه ، فعف لسانه عن انتقاصهم ، كما عف عن انزال الهلاك بهم حين أمكنته الفرصة في احدى المعارك ان يستأصلهم بالعطش في الصحراء .

وتمثلت فيه القوة زهدا وورعا وعفة ، فما امتدت يده لغير ما أحل له الله ، وما أباح لنفسه أو لاحد من عماله أو أقاربه أن تمتد يده الى شيء من أموال المسلمين ٠

هذه هي بعض نواحي البطولة في علي الامام ، في علي بطل المسلمين والاسلام ، في علي ابن عم الرسول ، في علي زوج فاطمة الزهراء ، في علي خاتم الخلفاء الراشدين ٠

وما أظن أن في الاسلام بطولة تفوق بطولة علي ــ كرم الله وجهه ــ فلقد كان لعلي خصوم في حياته، ودامت خصومتهم له حقبة من الزمن، ثم انقرض خصومه ودالت دولتهم ، ومع ذلك كان هؤلاء الخصوم أنفسهم من أشد الناس تقديرا لعظمته وبطولته ٠ وسأذكر بعد قليل طرفا من حديث معاوية عنه ، ولكنني أريد أن أقرر هنا ، أولا ، أن جميع المسلمين في جميع بقاع الارض ، من سنيين وشيعة ، يقرون للامام علي بالعظمة والبطولة ، ويعرفون له فضائله الجليلة التي تحلى بها ، وثانيا ، أننا إذا حذفنا كل مايريد أن يتشكك فيه المتشككون مما نسب الى سيدنا علي من الاعمال ، واستبعدنا كل ما يريد أن يستبعده المتحرجون مما نسب اليه من الاقوال ، فان ما يتبقى ــ مما لا شك في نسبته اليه ــ كاف في بيان عظمته وبطولته ٠

فما من شك في أنه نشأ في بيت الرسول الكريم منذ كان عمره ست سنوات ، وأنه تخلق بأخلاق النبي قبل رسالته ، واهتدى بهديه منذ اليوم الاول لاعلانها، فكان بذلك بريئا من أدناس الجاهلية، فكرم الوجه عن السجود لغير الله تعالى ٠

وما من شك في أنه حمل مع الرسول الكريم عبء الرسالة ، وأنه قدم نفسه مفتديا له ليلة الهجرة فنام في فراشه ليوهم قريشا أن الرسول ما زال في فراشه حتى لا يتعقبوه ٠

وما من شك في أنه صاحب الرسول الكريم في جميع غـــزواته الا واحدة منها ، وأنه أبلى فيها جميعا بلاء حسنا ، فكان أول من تقدم للمبارزة يوم بدر ، وكان مع الثابتين الى جانب النبى فى محنة أحد وحنين ، كما كان فاتح خيبر وحامل لواء النصر فى معركتها . أمـــا الغزوة الوحيدة التى لم يصاحب الرسول فيها فهى غزوة تبوك ، وقد تخلف عنها بأمر النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ اذ استخلفه فى أهل بيته . وما كاد يرضى بذلك لولا أن قال له الرسول الكريم : أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ، الا أنه لا نبوة بعدى !

وما من شك فى أن سيدنا عليا كان من كتاب الوحى ، فسجـــل بقلمه كتاب الله تعالى كما أنزله الله على نبيه . ومن كان أحـــق بتسجيل آيات الله عقب نزولها من الفتى المؤمن المثقف ، المؤمن منذ اليوم الاول لظهور الاسلام ، والمثقف على يد محمد رسول الاسلام ؟

وقد ظل هذا الرباط الوثيق بين على وابن عمه الرسول ، ثـــم ازداد وثاقة بزواجه من ابنته السيدة فاطمة الزهراء ، فروى أحاديث الرسول كما سجل كتاب الله ، وتتلمذ عليه ابن عباس فلازمه وأخذ عنه الحديث وتخرج على يديه . سئل ابن عباس مرة : أين علمك من علم على ابن عمك ؟ فقال : كقطرة المطر الى البحر المحيط .

فليس عجيبا بعد هذا أن يكون لعلى تلك المنزلة الرفيعة فى العلم والرواية والرأى ، فقد كان حجة المسلمين فى الفقـه والتفســير والفتيا ، حتى أن عمر بن الخطاب ، على جلالة قدره وعلمـــه ، كان يرجع اليه فيما يشكل عليه من أمور الدين ، وقد قال : لا يفتين أحد فى المسجد وعلى حاضر ، كما قال رضى الله عنه : لولا على لهلك عمر .

ولقد منحته هذه النشأة ، وهذه الثقافة ، صفات الاسلام الحقة التى يكفينى منها الليلة صفتان أتحدث عنهما : احداهما سماحته ، والاخرى ورعه .

ولقد يكون المرء سمحا مع الاصدقاء ، ولقد يكون المرء سمحا وقت الرضا والسلامة ، ولكن السماحة الحقيقية لا تتبين إلا وقت الشدة ، ومع الخصوم ، وعند المقدرة عليهم • وكذلك كانت سماحة على رضى الله عنه • كان مروان بن الحكم من أشد الناس عداوة لعلى ، ألب عليه الجماعة ، وحارب فى صفوف أعدائه ، فلما ظفر به على السمح عفا عنه • وكان عبد الله بن الزبير يبسط لسانه فى على ، يسبه على رءوس الاشهاد ، فلما وقع أسيرا فى يد على يوم الجمل ، لم يزد على أن قال له : اذهب فلا أرينك •

وحدث فى أثناء قتال معاوية له لاغتصاب الخلافة منه ، أن سيطر عسكر معاوية على الموقف ، وأحاطوا بالماء الذى يستقى منه على وجيشه ، وأرادوا قتلهم ظمأ ، فأرسل لهم على أن يسمحوا لهم بشرب الماء • فأجابوه : لا والله حتى تموت ظمأ • فلما أدرك أنه لا مفر من الموت استبسل هو وجيشه وهجموا على جيش معاوية ، فأزالوهم عن مراكزهم وسيطروا على الماء ، فأصبح معاوية وجيشه عرضة للهلاك من العطش • وهنا قال أصحاب على له : امنعهم الماء ، يا أمير المؤمنين كما منعوك ، ولا تسقهم منه قطرة ، واقتلهم بسيوف العطش ، وخذهم قبضا بالايدى ، فلا حاجة لك الى الحرب • فقال : لا والله ، لا أكافئهم بمثل فعلهم ، أفسحوا لهم عن بعض الشريعة ، ففى حد السيف ما يغنى عن ذلك •

هذه سماحة القادر على عدوه ، سماحة المحارب الشريف الذى يأبى الا أن ينتصر شريفا أو يهزم شريفا • كذلك كان على ــ كرم الله وجهه ــ وما أصدقه عن نفسه حين قال ، وقد سمع الناس يتحدثون عن دهاء معاوية : « والله ما معاوية بأدهى منى ، ولكنه يغدر ويفجر • ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس • »

أما زهده وورعه وتقشفه فذلك ما شهد به خصومه قبل أشياعه • ولكن لماذا تحب المتقشفين وتعجب بالزهاد ؟ لماذا

تستهوينا هذه الصفات ، حتى حين نعجز عن الاتصاف بهـــا ؟ ان الزهد والورع والتقشف ترجمة لقوة نفسية عظيمة ، ودليل عـــلى عزيمة سليمة وشجاعة أدبية عملية تبدأ بقهر النفس الامارة بالسوء • هذا هو السر فى اعجابنا بالزهاد والمتقشفين ، حتى حينما نعجز عن محاكاتهم • أما الاسراف والتبذير والتبذل فلم يعهـــد أن يثـــير فى نفوسنا الاعجاب والاجلال • لأن النفوس اذا كانت سليمة من الدنس والالتواء فان هذه الصفات تثير فيـــها السخط والاشمئزاز ، واذا كانت النفوس ضعيفة مريضة فان هذه الصفات لا تزيد على أن تحرك فيها نوعا من الدهشة غير محدود ، وشعورا بشيء من القلق هـــو أقرب ما يكون الى الحسد ، وأبعد ما يكون عن الاعجاب • هذا هو السر فى أنها على اختلاف طبائعنا لا نملك أنفسنا عن الاعجاب بالزهـــد والتورع • ولقد كان زهد على وتورعه وتقشـــفه موضـــع اعجـــاب أصحابه وخصومه على السواء •

كانت الاموال تجبى اليه من جميع البلاد التى فى طاعته ، ولكنه ظل أخشن الناس مأكلا وملبسا • جاءه عقيل أخوه ، وقد لزمه دين يريد أن يسده عنه خليفة المسلمين ، القابض على بيت المال • فأضافه على ، ودعا بعشائه ، فاذا خبز وملح وبقل • فقال عقيل متســائلا عن الوليمة التى كان ينتظرها : ماهو الا ما أرى ؟ فأخبره على أنه لا سبيل الى تغيير هذا الطعام • فقال عقيل : فتقضى دينى ؟ قال : وكم دينك ؟ قال : أربعون ألفا • قال على : ما هى عندى ، ولكن اصبر حتى يخرج عطائى فانه أربعة آلاف درهم فأدفعه اليك • فقال عقيل : بيـــوت المال بيدك ، وأنت تسوفنى بعطائك ؟ فقال على : تأمرنى أن أدفع اليك أموال المسلمين وقد إئتمنونى عليها !

ولقد شهد له معاوية ، خصمه الألد ، بهذه النزاهة النزيهة • فقد حج معاوية بعد قتل على فسأل عن امرأة يقـال لها الدارميـــة الحجونية كانت من أنصار على • فلما جاءت قال لها : أتدرين لم بعثت

اليك ؟ قالت : لا يعلم الغيب الا الله • قال : بعثت اليك لاسـألك علام أحببت عليا وأبغضتنى ، وواليته وعاديتنى ؟ قالت : أو تعفينى ؟ قال : لا أعفيك • قالت : أما اذ أبيت ، فانى أحببت عليا على عدله فى الرعية ، وقسمه بالسوية ، وأبغضتك على قتال من هو أولى منـك بالامر ، وطلبتك ما ليس لك بحق ، وواليت عليا على ما عقد له رسول الله من الولاء ، وحبه المساكين ، واعظامه لاهل الدين ، وعاديتك على سفكك الدماء ، وجورك فى القضاء ، وحكمك بالهوى • قال : هل رأيت عليا ؟ قالت : إى والله • قال فكيف رأيته ؟ قالت : رأيته والله لم يفتنه الملك الذى فتنك ، ولم تشغله النعمة التى شغلتك • قال : فهل لك حاجة نقضيها ؟ قالت : أو تفعل اذ سألتك ؟ قال : نعم • قالت : تعطينى مائة ناقة حمراء فيها فحلها وراعيها • قال : تصنعين بها ماذا ؟ قالت : أغذو بألبانها الصغار ، وأستحيى بها الكبـار ، وأكتسب بها المكارم ، وأصلح بها بين العشائر • قال : فان أعطيتك ذلك فهل أحل عندك محل على بن أبى طالب ؟ فقالت : سبحان الله ! أو دونه ! فأنشأ يقول :

اذا لم أعـد بالحـلم منى عليـكم فمن ذا الذى بعدى يؤمل للحلم ؟
خذيها هنيئا ، واذكرى فعل ماجد جزاك على حرب العداوة بالسلم

ثم قال : والله لو كان على حيا ما أعطاك منها شيئا • قالت : لا والله ولا وبرة واحدة من مال المسلمين •

وبعد فهذه صفات على ، وهذه صفات أنصاره اقتبسوها منه ،

وهذه شهادة خصومه دانوا فيها لعظمته ، واعترفوا فيها ببطولته •

خالد بن الوليد

تحدثت اليكم فى هذه السلسلة عن عـــدد من أبطال السياســة ، والدين والرأى • وسأتحدث اليكم فى هذه العجالة عن رجل من رجال السيف ، عن بطل محارب ، وقائد مظفر ، كان لهفضل خالد فىالمحافظة على كيان الدولة الاسلامية ابان نشأتها • ذلكم هو خـالد بن الوليد ، الذى سماه الرسول الكريم : « سيف الله » •

نشأ خالد بن الوليد شجاعا مقداما ، وفارسا يركب الخيل ويخضع شموسها ، وكان ذا ارادة صارمة ، سيطرت على حياته قبل اســلامه وبعده • ولم يكن خالد ممن استجابوا لدعوة الاسلام فى أيامه الأولى بل ظل مع قريش حقبة كان فيها معارضا للاسلام معارضة عنيفة ، لا يفوقها الا دفاعه عن الاسلام ، وغيرته على دعــوته ، واستماتته فى سبيل نشر لوائه بعد أن أسلم •

ولئن كان خالد قد قضى حياته فى الاسلام مكافحا فى ســبيله ، منافحا عنه ، فى صراع دائم مع أعداء الدين ، لقد قضى خالد الحقبــة التى سبقت اسلامه فى صراع مع نفسه فى ســبيل الوصول الى نور الهداية • لقد خاصم الاسلام فى أول عهـــده ، وحارب فى صفوف أعدائه ، ولكنه حين حضر له الرشد ، وقذف الله فى قلبه حب الاسلام اندفع كالسهم بين صفوف المسلمين ، فكان فى طليعتهم •

حدث عن نفسه ــ رضى الله عنه ــ فقال : « لما أراد الله ، عز وجل ، ما أراد بى من الخير ، قذف فى قلبى حب الاسلام ، وحضر لى رشدى ، وقلت : قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ فليس موطن أشهده الا أنصرف وأنا أرى فى نفسى انى موضع فى غير

شيء ، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم يظهر • فلما جاء صلى الله عليه وسلم لعمرة القضاء تغيبت ولم أشهد دخوله » •

يقصد العام الذى كان فيه صلح بين المسلمين وقريش ، وقد ذهب النبى وصحبه للعمرة ، فلم يطق خالد أن يراه يدخل مكة •

ثم قال خالد : « فكان أخي الوليد بن الوليد قد دخل معه — صلى الله عليه وسلم — فطلبنى فلم يجدنى ، فكتب الى كتابا يقول فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم • أما بعد فانى لم أر أعجب من ذهاب رأيك فى الاسلام ، وعقلة عقلك ، ومثل الاسلام يجهله أحد !•• قد سألنى عنك رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : أين خالد ؟ فقلت يأتى الله به • فقال : مامثله يجهل الاسلام ، ولو كان يجعل نكايته مع المسلمين على المشركين كان خيرا له ولقدمناه على غيره • فاستدرك يا أخي مافاتك ، فقد فاتتك مواطن صالحة » •

هذه هى شهادة النبى الكريم فى خالد قبل أن يسلم ، بعث بها اليه أخوه • فماذا كان استجابته ؟ يقول خالد :

« فلما جاءنى كتابه نشطت للخروج ، وزادنى رغبة فى الاسلام ، وسرتنى مقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم • ورأيت فى المنام كأنى فى بلاد ضيقة جدبة ، فخرجت الى بلاد خضراء واسعة • فلما أجمعنا الخروج الى المدينة لقيت صفوان فقلت : يا أبا وهب ، أما ترى أن محمدا ظهر على العرب والعجم ، فلو قدمنا عليه فاتبعناه فان شرفه شرف لنا • قال : لو لم يبق غيرى ما اتبعته أبدا » • ولو أن عزيمة خالد كانت من طراز خائر قابل لتسلط الغير لتأثر بمثل هذا القول العنيف •

ولكنه ، وقد هدى الله قلبه للايمان ، قال : « هذا رجل قتل أبوه وأخوه ببدر • ثم لقى عكرمة بن أبى جهل فقال له مثل ماقال لصفوان ،

فأجابه بمثـــل ما أجاب صفوان . ثم لقى عثمان بن طلحة ، فقال فى نفسه : هذا لى صديق ، وأراد أن يحدثه فى اعتناق الاسلام ، ولكنه تذكر من قتل من أهله فى حروب الكفار مع المسلمين ، فقد قتل أبوه وعمه وأربعة من اخوته ، فكره أن يذكر له أمر الاسلام ، ولـكنه عاد فقال : وما على ؟ ثم عرض عليه الأمر فأسرع الاجابة ، وتواعـدا على اللقاء فى مكان ، فوجدا به عمرو بن العاص فقال لهما : مرحبا بالقوم ، فقالا : وبك . قال : أين مسيركما ؟ قالا : الدخول فى الاسلام . قال : ذلك الذى أقدمنى .

هؤلاء ثلاثة كانت خصومتهم للاسلام على أشدها ، ومنـهم من فقد فى سبيل عدائه للاسلام خيرة أهله ، ومع ذلك يأبى الاســلام الا أن يعلن انتصاره عليهم فى ساعة واحدة .

وما أجمل ما يقول خالد ردا على عمرو : « والله لقد استقام الميسم (أى ظهر الحق ووضح الطريق) وان هذا الرجــل لنبى ، اذهب فأسلم ، فحتى متى ؟ »

وذهب ثلاثتهم الى المدينة ، فلما سمع الرسول بقدومهم سر بهم وقال : « رمتكم مكة بأفلاذ كبدها » . ويقول خالد : ولبست من صالح ثيابى ، ثم عمدت الى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فلقينى أخى فقال : أسرع فان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قد سر بقدومكم ، وهو ينتظركم ، فأسرعنـا المشى ، فاطلعت عليــه ، فما زال ــ صلى الله عليه وسلم ــ يبتســـم الى حتى وقفت عليه ، فسلمت عليه بالنبوة ، فرد على السلام بوجه طلق ، فقلت : أشهد ألا اله الا الله ، وأنك رسول الله ، صـــلى الله عليه وسلم . فقال الرسول : « الحمد لله الذى هداك ، قد كنت أرى لك عقلا رجوت ألا يسلمك الا الى خير » . قلت : يا رسول الله ادع الله لى أن يغفر لى تلك المواطن التى كنت أشهدها عليك . فقال ــ صلى الله عليـه وسلم : « الاسلام يجب ماكان قبله » .

هذا هو اسلام الرجل الذى كاد يوقع الهزيمة بالمسلمين يوم أحد ، والذى كان يتربص بالمسلمين الدوائر يوم الخندق ، والذى تقدم للفتك بالمسلمين يوم الحديبية • وما أن أسلم حتى اتخذه النبى سفيرا له ، ورسولا أمينا ، وقائدا مظفرا • أرسله النبى لبطن نخله لهدم هيكل العزى ، وأرسله الى بنى جذيمة ، والى بنى المصطلق ، والى دومة الجندل ، والى نجران ، فكان رسولا يحمل رسالة الاسلام ، ومعلما يرشد العرب الداخلين فى دين الله ، ومحاربا يقاتل خصوم الدين •

وتولى أبو بكر الخلافة بعد الرسول ، فقامت فتنة الردة على أيدى دعاة الهزيمة وأنصار الانشقاق ، فعهد أبوبكر الى خالد بن الوليد أن يؤدبهم فأدبهم ، وضربهم ضرب غرائب الابل •

ولا يمكن أن يتسع هذا الحديث لملاحقة خالد فى غزواته وحروبه ، ولكننى سأقنع بالتحدث اليكم عن ناحية أو ناحيتين من أخلاق هذاالبطل العظيم •

فهذا الجندى المحارب الذى بنى مجده على حد السيف ، لم يكن يتردد فى قبول الصلح متى رأى فى ذلك حقن دماء جنوده بعد هزيمة عدوه ، فقد صالح بنى حنيفة فى قتال مسيلمة الكذاب ، وكتب لهم عهدا تتجلى فيه سماحة الاسلام فقطع فيه العهد بقوله : « ولكم ذمة خالد بن الوليد ، وذمة أبى بكر خليفة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وذمم المسلمين ، على الوفاء • كما قبل الصلح من أهل العراق حين قاتلهم على شاطىء الفرات ليلة حتى الصباح ، فلما رأوا أنه لا طاقة لهم بحربه طلبوا منه الصلح فصالحهم وكتب لقائدهم : « انك آمن بأمان الله على حقن دمك فى اعطاء الجزيه عن نفسك وجيرتك وأهل قريتك ••• وقد قبلنا منك ورضى من معى

من المسلمين بذلك ، فلك ذمة الله ، وذمة النبي محمد ، صلى الله عليه وسلم ، وذمة المسلمين على ذلك » ٠

وهذا القائد العبقرى لم يكن يهمل وسيلة من وسائل الانتصار الا فكر فيها ٠ كان يحب جنوده ويحبونه ، فكانوا يستميتون الى جانبه ٠ وكان لا يدعوهم فى المعارك الى أمر هو عنه بنجوى ، فكان أول من يتقدم للقتال ويبرز للمبارزة ٠ وكان يفكر فى المواصلات والطرق التى يجتازها بجنوده ليفاجىء عدوه ٠ فعندما اشتد الأمر بجنود المسلمين فى الشام كتبوا الى أبى أبكر يستمدونه ، فكتب أبوبكر الى خالد بن الوليد ــ وهو بالعراق ــ أن يصير بنصف جيشه الى الشام ٠ وفكر خالد فرأى أنه ان سلك الطريق العادى طال به الزمن ، وعرف العدو مسيره ٠ فسلك بجيشه طريق المفازة مع خطر السير فيها لخلوها من الماء ٠

وقد قال له الدليل : انك لن تطيق قطع المفازة بالخيل والأثقال ، فقال خالد : لابد لى من ذلك لأخرج من وراء جموع الروم ٠ ثم قام فخطب فى جنده مبينا لهم مبلغ ماسيتعرضون له من المحن ، فقالوا له بلغة الواثقين بقائدهم : « أنت رجل قد جمع الله لك الخير فشأنك .» وقد نفذ ذلك بما يعتبر من أروع الخطط الحربية فى تنقل الجيوش : فبدأ بتجهيز جيشه عند ماء يسمى قراقر ، وأمر صاحب كل جماعة ممن معه أن يأخذ معه قدرا من الماء يكفى لخمسة أيام ، وأن يعطش عددا من الابل ثم يسقيها علا بعد نهل ، وأن يصروا آذانها ومشافرها لئلا تجتر ٠ ثم ركبوا من قراقر ، فلما ساروا يوما وليلة شقوا بطون عشرة من الابل فمزجوا مافى كرشها من الماء بما كان من الألبان وسقوا عددا من الخيل ، وظلوا يفعلون ذلك أربعة أيام ، وفى اليوم الخامس وصل الى بعض مواضع العدو ففاجأه فيها وهزمه ٠

ولقد صعدت المقادير وانخفضت بخالد ، ولكنه كان فى الحالتين بطلا عظيم النفس . ففى واقعة اليرموك كتب أبو بكر رضى الله عنه يؤمره على جيش الشام وفيه قائده أبو عبيدة ابن الجراح . قال أبو بكر : « أما بعد فاذا جاءك كتابى هذا فدع العراق .. وامض متخففا فى أهل القوة من أصحابك ... حتى تأتى الشام فتلقى أبا عبيدة بن الجراح ومن معه من المسلمين ، فاذا التقيتم فأنت أمير الجماعة » .

فكتب خالد الى أبى عبيدة يقول له : « ... أما بعد فانى أسأل الله لنا ولك الأمن من يوم الخوف ، والعصمة فى دار الدنيا ، فقد أتانى كتاب خليفة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يأمرنى بالمسير الى الشام ، وبالمقام على جندها ، والتولى لأمرها . والله ما طلبت ذلك منه ولا أردته ولا كتبت اليه فيه . وأنت – رحمك الله – على حالك التى كنت بها ، لا يعصى أمرك ، ولا يخالف رأيك ، ولا يقطع أمر دونك ، فانك سيد من سادات المسلمين ، لا ينكر فضلك ، ولا يستغنى عن رأيك ... »

هذا خطاب عظيم لعظيم استجاب لأمر الخليفة الذى كتب اليه يقول : « أما بعد فانى وليت خالدا قتال الروم بالشام ، فلا تخالفه ، واسمع له وأطع أمره ، فانى وليته عليك ، وأنا أعلم أنك خير منه . ولكن ظننت أن له فطنة فى الحرب ليست لك ، أراد الله بنا وبك سبل الرشاد ... »

وشاءت المقادير أن تعكس الوضع فى أيام عمر بن الخطاب ، فقد عزل خالدا من قيادة الجيوش ، وأمر عليه أبا عبيدة . وكما قابل ابن الجراح عزله بما يقابل به الجندى أمر القائد الأعلى للدولة ، كذلك فعل خالد ، فحارب تحت امرة أبى عبيدة جنديا باسلا ، متهللا للقاء الموت فى سبيل الله . حتى قال عنه عمر ما أعده أسمى مدح يمدح به انسان : « أمر خالد نفسه » .

عائشة بنت أبى بكر

لم تكن البطولة فى عصر من العصور ، ولا فى أمة من الأمم ، مقصورة على الرجال دون النساء · ولقد حفل تاريخ المسلمين بصور من بطولات النساء يجدر بنا ألا نغفلها ونحن نعرض البطولة الاسلامية · وسنقضى الليلة فترة فى سيرة الطاهرة المطهرة ، البريئة المبرأة ، عائشة أم المؤمنين ، بنت أبى بكر الصديق ، وزوجة الرسول ، وراوية الحديث للمتفقهين فى الدين ، وقائدة الجيش فى طلب الثأر لدم عثمان رضى الله عنه ·

تفتحت عينا عائشة على الحياة يوم ولدت فى نور الاسلام ، وتنفست أول نفس من الحياة فى جو الاسلام ، فقد ولدت سنة أربع من النبوة فى حجر أبويها ، وشبت مسلمة لم تدنس الحياة الجاهلية يوما من أيامها ، ولا فعلا من أفعالها ، ولا قولا من أقوالها · ولم تغادر ذلك البيت الطاهر الا الى أطهر بيت كريم ، هو بيت الرسول ، عليه الصلاة والسلام · فتمت لها بذلك جميع مقومات الثقافة الاسلامية الكاملة · فهناك حفظت القرآن الكريم ، وروت أحاديث الرسول ، وسافرت معه فى غزواته ، وثقفت تاريخ الأمم ·

وسأتناول فى هذا الحديث ناحيتين من نواحى العظمة فى السيدة عائشة : احداهما ظهرت فيها بطولتها يوم ظلمت وافترى عليها ، فأنزل الله فيها قرآنا يبرئها ويكرمها · والأخرى يوم غضبت لقتل الخليفة عثمان ، فجردت قلمها للطلب بثأره ، وجندت نفسها على رأس جيش لمقاتلة من اتهمتهم بالتوانى فى طلب ذلك الثأر ·

خرج رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فى غزوة بنى المصطلق ومعه السيدة عائشة ، وكانت تحمل فى هودج وتبيت فيه • فلما فرغ الرسول من غزوته • وقفل راجعا ، كانوا ذات ليلة على مقربة من المدينة ، وآذنوا بالرحيل ، فخرجت عائشة من هودجها لتقضى شأنها ، فمشت الى الخلاء بعيدا عن الجيش • وفى أثناء عودتها لمست صدرها فاذا عقد لها قد انقطع •

فرجعت تلتمسه حيث كانت ، وأقبل الذين يرتحلون بالهودج فساروا به على البعير وهم يحسبون أنها فيه • ووجدت عائشة عقدها ورجعت فلم تجد أحدا ، فبقيت حيث كانت تنتظر من يحضر لنجدتها • وكانوا يجعلون وراء الجيش من يتبعهم ليلتقط ما قد يسقط منهم فى الرحيل • فجاء صفوان السلمي ووجد عائشة فأركبها راحلته وانطلق يقود الراحلة حتى لحقوا بالجيش •

وانتهز بعض المنافقين والأفاكين هذه الفرصة لاثارة الغبار حول السيدة عائشة • وألسنة السوء تتحرك بالاشاعات الباطلة فى كل عصر وفى كل مجتمع ، الى أن تأتى كلمة الحق فتدمغ الباطل وتقطع ألسنته •

وصلت عائشة الى بيتها وقد أصابها مرض من تعرضها لبرد الليل فى الصحراء حين تخلفت عن الجيش • وسمع الرسول الكريم بحديث الافك فانتظر وحى ربه ليهديه السبيل فى محنته ومحنة عائشة • وكان فى أثناء فترة المرض يدخل الى عائشة فيقول : كيف تيكم ؟ كل هذا وعائشة لا تدرى من الأمر شيئا ، وانما كانت مشغولة بمرضها حتى نقهت • فلما استطاعت المشى خرجت تمشى هى وأم مسطح ، فعثرت هذه فى مرطها ، فقالت : تعس مسطح ! فقالت عائشة : بئسما قلت ! أتسبين رجلا شهد بدرا ! فقالت أم مسطح : ألم تسمعى ما قال !؟ ثم أخبرتها الخبر ،

وأخبرتها أن ابنها مسطح بن أثاثة كان ممن خاضوا فى حديث الافك .

وانتكست عائشة وازدادت مرضا إلى مرضها . وجاء رسول الله فسلم عليها على عادته ، فقالت له : ائذن لى الى أبوى . وكانت تريد أن تستيقن الخبر من قبلهما . فأذن لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما ذهبت الى أبويها قالت لأمها : ما يتحدث به الناس ؟ فقالت : يا بنية ، هونى على نفسك ، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ، ولها ضرائر ، الا أكثرن عليها . فقالت عائشة : سبحان الله ، ولقد يتحدث الناس بهذا !

وباتت ليلتها لايرقأ لها دمع ولا تكتحل عيناها بنوم .

وزارها النبى ، عليه الصلاة والسلام وتحدث معها ، فقالت له :

والله ما أجد لى ولكم مثلا الا أبا يوسف ، إذ قال : « فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون » . وقبل أن يبرح رسول الله مجلسه نزل عليه الوحى بقوله تعالى : « ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم ، لا تحسبوه شرا لكم ، بل هو خير لكم ، لكل امرىء منهم مااكتسب من الإثم ، والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم . لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا ، وقالوا هذا افك مبين . لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ، فاذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك هم الكاذبون ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم . اذ تلقونه بألسنتكم ، وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ، وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم . ولولا اذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ، سبحانك ، هذا بهتان عظيم » .

ويومئـذ قال الرسول لعائشة : احمدى الله فقد برأك • فقـالت لها أمها : قومى الى رسول الله صلى عليه وسلم • فقالت عائشة : لا والله ، لا أقوم اليه ، ولا أحمد الا الله •

هذه غضبة عائشة لنفسها وهى فى شبابها ، تدل عـلى ثقتها بنفسها • واعتمادها على الله ، واجتهـادها برأيها • وقـد ظلت محتفظة بشخصيتها هذه تعلن غضبها ونقدها اذا رأت مايخـالف الصواب •

بلغها فى أيام الخليفة عثمان أن قوما يتناولون أبابكر بالنقـد فخطبت فى جمع من المسلمين قائلة :

« أبى ، وما أبيه ! أبى والله لا تعطوه الأيدى ، ذاك طود منيف ، وفرع مديد ... أنجح اذ أكديتم ، وسبق اذ ونيتم... فتى قريش ناشئا ، وكهفها كهلا... فلما قبض الله نبيه ، صلى الله عليه وسلم ، ضرب الشيطان رواقه ، ومد طنبه ، ونصب حبائله ، وأجلب بخيله ورجله • واضطرب حبل الاسلام ... فقام حاسرا مشمرا ، فجمع حاشيتيه ، ورفع قطريه ... وحقن الدماء فى أهلها » •

ولم تقصر دفاعها على أبيها ، لأنها لم تكن تدافع عن أبيـها ، وانما كانت تدافع عن أبىبكر الذى نصر الاسلام ، بل كانت تدافع عن كل خليفة ينهض بعبء الخلافة ، لذلك قرنت باسم أبيهـا اسم عمر بن الخطاب ، فقالت ان أبابـكر حين أتته منيتـه سدت ثلمته بنظيره فى الرحمة ، وشقيقه فى السيرة والمعدلة ، ذاك ابن الخطاب ، فلله در أم حملت به ، ودرت عليه ، لقد أوحدت به ، فأذل الكفرة ودبخها ، وشرد الشرك شذر مذر ... ترأمه الدنيا وتقبل عليه ، ويصدف عنها ، وتتصدى له ويأباها ، ثم وزع فيها فيئها ، وودعها كما صحبها •

هذا رأيها فى أبى بكر وفى عمر ، ولما ولى الخلافة عثمان ، رضى الله عنه ، كان فيه حياء وخجل ، وعين من عماله من كانوا شبانا أحداثا ، وسخط المسلمون من بعض تصرفاته ، وكانت عائشة من الناقدين لبعض ما عمل ، تريد بذلك تقويمه وتسديد خطاه • ولكنه حين قتل لم تتردد فى اعلان سخطها على قاتليه ، فجعلت تتنقل فى الأمصار ، تخطب الجموع لتثير فيهم الحماسة لطلب الثأر بدم عثمان • فما كان نقدها ليصل بها الى أن تقر اغتياله أو تتغاضى عنه • وقالت فى احدى خطبها : « كان الناس يتجنون على عثمان ، رضى الله عنه ، ويزرون على عماله ، ويأتوننا بالمدينة فيستشيروننا فيما يخبروننا عنه ، فننظر فى ذلك فنجده بريا تقيا وفيا ، ونجدهم فجرة غدرة كذبة يحاولون غير ما يظهرون ، فلما قووا على المكاثرة كاثروه ، فاقتحموا عليه داره ، واستحلوا الدم الحرام ، والبلد الحرام ، والشهر الحرام ، بلا ترة ولا عذر • الا أن ما ينبغى — لا ينبغى لكم غيره — أخذ قتلة عثمان رضى الله عنه ، واقامة كتاب الله عز وجل (ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون الى كتاب الله ليحكم بينهم) •

رأت عائشة قتلة عثمان يعودون الى ديارهم آمنين فغضبت وجمعت جمعا عظيما فيه طلحة والزبير وعبد الله بن عامر وركبت جملا يسمى « عسكرا » ، وارتحلوا نحوالبصرة فوقعت في أيديهم بعد قتال شديد •

وفى ذلك اليوم قالت عائشة تخاطب أهل البصرة : « أيها الناس ••• ان لى عليكم حق الأمومة ، وحرمة الموعظة ، لا يتهمنى الا من عصى ربه • مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين سحرى ونحرى ••• ثم أبى ثانى اثنين ثالثهما الله ، وأول من سمى صديقا ، مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم راضيا عنه ، وطوقه أعباء الامامة ، ثم اضطرب حبل الدين بعده فمسك أبى بطرفيه ، ورتق

لكم فتق النفاق ... ثم قبضه الله اليه ، واطئا هامات النفاق ... فولى أمركم رجلا مرعيا اذا ركن اليه ... صفوحا عن أذاة الجاهلين، يقظان الليل فى نصرة الاسلام ... ففرق اشمل الفتنة . وأنا نصب المسألة عن مسيرى هذا لم ألتمس اثما ، ولم أونس فتنة أوطئكموها أقول قولى هذا صدقا وعدلا ، واعذارا وانذارا ، وأسأل الله أن يصلى على محمد وأن يخلفه فيكم بأفضل خلافة المرسلين » .

لقد قامت عائشة بما قامت به عن اجتهاد فى الرأى ، وقد كررت ذلك فى كل خطبة وفى كل رسالة ، فعند ما كتبت لها السيدة أم سلمة تنهاها عن الخروج الى البصرة ردت عليها بقولها : « أما بعد فما أقبلنى لوعظك ، وأعرفنى لحق نصحك ! وما أنا بعمية عن رأيك ... ولنعم المسير مسير فزعت فيه الى فئتان متناجزتان من المسلمين ! فان أقعد ففى غير حرج ، وان أمض فالى ما لابد لى من الازدياد منه » .

وبعد فهذه عائشة تجتهد برأيها وتعمل به ، لا عن هوى ولا عن ضغينة . ولا أدل على ذلك من أنها لم تضمر لعلى حقدا . فحين علمت بموته ذهبت الى قبر الرسول فأخذت لعضادتى الباب وقالت :

« السلام عليك يا رسول الله ... أنا ناعية اليك أحظى أحبابك ، وذاكرة لك أكرم أودائك عليك ، قتل والله حبيبك المجتبى ، وصفيك المرتضى . قتل والله من زوجته خير النساء . قتل والله من آمن ووفى ، وانى لنادبة ثكلة ، وعليه باكية حراء » .

رضى الله عن عائشة ، ورضى الله عن على .

عبد الله النديم

والثــورة فى راى الشعوب المضــطهدة بلسم وعلاج على يد أطباء أولئك الطغاة بالسجن والتعذيب والتشريد وبالقتل أحيانا ٠

والثــورة فى رأى الشــعوب المضطهدة بلسم وعلاج على يد أطباء المجتمع الذين يمتد بهم تفكيرهم خلال ضباب الحاضر مخترقا غياهب المستقبل ليتصور حالة من الاصلاح السياسى والاجتماعى ، والذين تخرج بهم شجاعتهم من حالة التفكير المجرد الى مرحلة التنفيذ العملى ، فيتقدمون فى وجه الطغيان وقــد أيقنوا أن حرية شعوبهم أعز عليهم من أرواحهم ٠ يتقدمون وقد أعدوا دماءهم الزكية ليرووا بها شجرة الحرية التى غرستها يد العدالة الالهية فى هذه الأرض ، ليستظل بها من يستحقها ممن يحسن تعهدها ٠

هذا هو شأن الثورة التى تتأجج فى صدور الشعوب حتى تجد لها منفذا تتنفس منه ، على لسان خطيب ، أو قلم كاتب ، أو حسام جندى ٠

وسنقضى الليلة فترة وجيــزة مع ذكرى بطل ثائر لم تفصلنا عنــه حقبة طويلة ، فقد كان خطيب ثورة عسكرية بدأت منذ سبعين عاما ، ولم يــكبتها الظلم والاستبداد الا لتعود للظهور أقوى وأشد وأعدل وأبعد مدى مما بدأت ٠

سأتحدث اليكم الليلة عن خطيب الثورة العرابية ، السيد عبدالله النديم الذى ولد ثائرا ، وعاش ثائرا ، ومات ثائرا ٠

ثار على الفقر وهو طالب ، فاشتغل عامل تلغراف ، وثار على العمل الحكومى فاشتغل تاجرا ، وثار على التعليم الحكومى فأنشأ مدرسة حرة ، وثار على الاوضاع القائمة فى الأمة من ظلم فى جباية الضرائب وقسوة من الحكام فألف المسرحيات التى تسخر من هذه الأوضاع وثار على قيود الكتابة البديعية المسجوعة فحررها وأرسلها طليقة حرة معبرة ، وثار على طغيان الحاكم فانضم الى الثورة العرابية خطيبا وكاتبا .

نشأ عبد الله النديم فى الاسكندرية فكان له من صفات أهلها النبوغ والاقدام . حفظ القرآن الكريم قبل أن يبلغ التاسعة ، وقال الشعر وهو فى سن المراهقة ، وألف نحو مائة كتاب . وبعد أن تقلب بين طلب العلم فى الاسكندرية ، والعمل فى مكاتب التلغراف بالقاهرة والتجارة بالمنصورة ، عاد الى الاسكندرية فاتصل بصديقين من مؤسسى جمعية مصر الفتاة ، وكانت جمعية سرية ، ولكنه خشى عليها بطش الحكومة فى وقت لم يكن فيه من هو مستعد للحركات الخفية استعدادا كافيا ، فسعى الى تأليف الجمعية الخيرية الاسلامية ليضمن لها من علانيتها مايكفل لها البقاء للعمل على بلوغ غايتها الوطنية . وكان ذلك فى عهد أقرب الى عهد الارهاب ، فى آخر حكم الخديو اسماعيل ، والأفكار مضطربة ، والأقلام محطمة ، والألسنة معقودة ، والأيدى مغلولة .

فكان للنديم الفضل فى العمل على انشاء أول جمعية اسلامية فى مصر منذ الفتح الاسلامى . وكانت ترمى الى بذر بذور الوطنية الصادقة فى نفوس النشء عن طريق التربية الصحيحة التى كانت مفقودة فى المدارس الحكومية . فدل بذلك على بعد نظره فى اقامة الدين والوطنية على أساس سليم من التربية الخلقية الصادقة .

وبدأت الجمعية بما يعد فى مقدمة الخدمات الاجتماعية الأولى فى مصر ، اذ أنشأت مدرسة لتعليم الأيتام وأبناء الفقراء . وكان النديم مديرا لها ، ولكنه لم ينظر الى هذه المدرسة على أنها ملجأ أو اصلاحية يزدرى تلاميذه ، وتربى فى نفوسهم الذلة بل نظر اليها على أنهـا مؤسسة اسلامية قومية ترعى فريقا من أبناء الأمة ، ولذلك قام هو بالتدريس فيها ، كمـا استقدم اليها أكفـاء المدرسين من العرب والأجانب . ومن أهم ما عنى به فى هذه المدرسة تدريب التلاميـذ على الخطابة والمناقشة . وهما سلاحان من أسلحة الثورة .

وكما عالج الاصلاح بالتعليم فى صـغار النشء ، كذلك عالجه في الجمهـور عن طريق المسرح ، فألف مسرحيتين مع سـخرية لاذعة بالحـكام وجبروتهم وتعنتهم مع الفلاحين ، من صراف القـرية الى مدير المديرية . ففى احداهما يدور الحوار بين أهل الريف عن جنود « الطوافة » ومشايخ البلد ، والمآمير ، والمديريين الذين ينزلون بهم ألوان العذاب فى سبيل طلب « المال » ويستعملون « العدة » لابتزاز ما فى أيديهم .

وهذه الفكرة كانت من أهم مايقلق بال النديم ، ولذلك رددها فى مسرحياته وفى مقالاته التى تعد بالمئات . ففى مقالة له عن التمثيل العربى يقول : كان « ابن رابية » (وهو نوع من التمثيل البدائى) يمثل أحوال الحكام فى مصر ، وأخذهم الناس للسخرة فى الحبـال والحديد ، وقتل الرجل على عشرين فضة ، وشنق آخر لغضب المدير أو المأمور ، ونهب المزارع والماشية ، واصدار الأحـكام بحسب ما يتصور لحاكم الخط فضلا عن المأمور وفضلا عن المدير .

كل ذلك كان خميرة الثورة فى نفس النديم وفى نفس الأمة التى تنفسته زفيـرا حارا بعد قليـل . وسعى الساعون بعبد الله النديم فعزلوه من المدرسة ومن الجمعية ، ولكنه حول نشاطه الى الصحافة ، وهى المدرسة الكبرى للشعب ، وكان من فضله على الصحافة أنـه

حرر أسلوب الكتابة الصحفية من السجع والمحسنات البديعية التى كانت مسيطرة على لغة العصر ، فكتب فى جريدتى « المحروسة » و « العصر الجديد » بأسلوب سهل مرسل ، كان من الأسس التى قام عليها الأسلوب الصحفى الحديث •

ثم أنشأ مجلة أسبوعية هى « التنكيت والتبكيت » ظاهرها هزل وفكاهة ، وباطنها جد وثورة • فكان بذلك أول صحفى عربى استخدم فى نقده الأسلوب الساخر •

ولم تكن هذه المجلة مما يكتب له طول البقاء ، فى عصر لا يحتمل فيه الحاكم نقدا، ولا يطيق فيه دعوة الى اصلاح • ولكن بطلنا الثائر لم يكن ليقعده عن رسالته اغلاق صحيفته ، فسرعان ما أنشأ مجلة « الطائف » قبيل الثورة العرابية ، وكانت سياسية محضة هذه المرة ، فتلقفها القراء ، لأنها كانت تعبر عما يجيش فى صدورهم •

وفى هذه الآونة كانت بوادر الثورة تتجمع فى صدور نفر من الأمة ، وقد أشعل هذه النيران ما شعر به الحزب العسكرى فى البلاد من سوء سياسة الحاكم ، وتفضيله الأجانب على الوطنيين فى الوظائف والتضييق على حريات الأمة •

وهنا كان عبد الله النديم يعلن فى جريدته السخط على النظم الظالمة القائمة ، فرأى فيه رجال الثورة العسكرية حليفا صادقا ، وأدركوا وحدة المقصد بينه وبينهم ، فلقبوه بخطيب الثورة ، واتخذوا جريدته لسانا ناطقا بدعوتهم وثورتهم ، وظل معهم حتى حلت الكارثة الكبرى باحتلال الانجليز لأرض الوطن المقدس وأنزل الانجليز وصنائعهم عقوبة النفى والسجن والمصادرة بزعماء الثورة ، غير أن النديم استطاع أن يفر من ذلك العدوان فاختفى عشر سنوات فى بلاد القطر • ولئن شهد ذلك للنديم بدهائه وسعة حيلته ، فانه ليشهد أيضا للأمة المصرية بالوطنية الصادقة ، والوفاء للمجاهدين

من أبنائها • فقد أعلنت الحكومة مكافأة قدرها ألف جنيه لمن يدل عليه (ولنلاحظ أن ذلك المبلغ كان يساوى يومئذ مايزيد على خمسين ألف جنيه اليوم ، ولكن الذين أخفوه عندهم لم يفكروا فى أن يدنسوا أيديهم ونفوسهم بهذا المال الذى تباع به شخصية حبيبة الى قلوب الأمة تمثلت فيها أمانيها من الثورة على الظلم ، والنزوع الى الحرية الكريمة •

وقد حدث أنه أقام مرة فى ضيافة صديق له مدة سنة ، ثم مات الصديق ، فدعت زوجته أكبر أبنائها ، وهو غلام لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره ، فقالت له : هذا عبد الله النديم الذى جعلت الحكومة على رأسه ألف جنيه • أفتريد أن تؤويه وتكرم مثواه كما فعل أبوك ، أم ترغب فى مال الحكومة فأكون بريئة منك الى يوم القيامة ؟ فأجاب الغلام : حاشا لله أن أنقض عهدا عقده أبى ، وسأحافظ عليه محافظتى على عرضى ، ولن تمتد اليه يد ما دمت حيا •

وبعد عشرة أعوام ظهر النديم من مخبئه ، فقبض عليه وحبس ، ثم نفى خارج القطر المصرى كله ، فاختار فلسطين بالقرب من الحدود المصرية • كأنه لم يكن يريد أن يبعد عن أرض الوطن المحبوب الا بمقدار الخط الوهمى الذى يحدد الحدود السياسية بين الأمتين العربيتين •

وبعد وفاة الخديو توفيق عفى عن النديم ، فعاد الى مصر ، ولكنه لم يعد تائبا ذليلا يدفع ثمن العفو عنه خضوعا وخنوعا لذوى السلطان ، بل عاد كما خرج ثائرا ، فأنشأ مجلة « الأستاذ » فتلقفتها الأيدى بمجرد ظهورها ، كما فعلت بسابقاتها ، ولكن الحكومة أغلقتها ، كما أغلقت سابقاتها ، خوفا من أثرها فى نفوس الشعب ، وقررت ابعاده عن مصر ، فذهب الى القسطنطينية وبقى فيها حتى توفى الى رحمة الله •

والنديم الذى لم ترهبه سطوة الأريكة الخديوية فى مصر ، لم تفزعه رهبة الباب العالى فى تركيا • فقد وشا به ، وهو فى

القسطنطينية ، واش لسلطان آل عثمان ، وقرر السلطانأن ينفيه الى بعض الولايات البعيدة ، فلما علم النديم بذلك أرسل برقية للسلطان يقول له : « انك أنت أمير المؤمنين القـادر على الانتقام والعقاب بلا معارض أو منازع ، ولكننا سنقف بين يدى عادل قاهر يقضى بيننـا بالحق ، وهو خير الحاكمين » • وقد أفزعت السلطان هذه الكلمات المملوءة شجاعة فردته عن عزيمته •

ان هـذا الثائر لم ينقطع يوما عن تذكير الملوك والحكام بواجبهم ، فى خطبه تارة ، وفى مسرحياته طورا ، وفى مقالاته حينا • فمـرة يقول لهم : « مملـكة يسوسها غارق فى الشهوات مقبرة تزار ولا تسـكن » •

وأخرى يلذع أمر اللذعات بقوله : » اذا ساعدت الأجنبى على أخذ بلادك فلا تغضب اذا نام فى فراشك » •

ولو أردنا أن نتخذ لنا شعارا من أقوال النديم ، نوصى به أنفسنا واخواننا وأبناءنا لاتخذنا قوله :

« اذا رأيت المعـذبين فى الحرية فجـد فى تخليصهم أو اللحوق بهـم » •

وبعد فلا بد لى أن أذكر كلمة عابرة عن ناحية انسانية سمحة فى هذا الثائر الجبار : فهذا الثائر الذى يلتهب فؤاده سخطا على الظلم والظالمين ، كان قلبه يفيض عطفا ورقة على الفقراء والمساكين ، فلم يعرف أنه رد طالب توجه اليه • ويكفى أن نعلم أنه فى ثورته ، وفى رحمته ، لم ينس خادمه الذى لازمه فى مخبئه عشر سنوات ، فقـد علمـه القـراءة والكتابة ، وحفظه قدرا من القرآن الكريم ، ودرس له الفقه والتوحيد ، وزوجه واتخذه صاحبا • ثم رتب له بعد ظهوره من مخبئه مايكفيه هو وأهله •

كذلك كان النديم •

الغــزالى

هذه صورة رائعة لامام من أعظم أئمة الفكر الاسلامى ، وترجع روعتها الى عدة أسباب ، أهمها أنها صورة لمفكر أرقه الشك حينا فاتخذه وسيلة للوصول الى اليقين ، ودانت له الدنيا ومافيها من متاع فهجرها الى الزهد والتصوف . وملأ جوانب حياته بالتفكير النظرى والعملى ولم يبخل به على أحد ، فعلمه للناس ودونه لنا فى كتب نستمد منها الرأى والرشاد .

كان فى مدينــة طــوس من بلاد خراسان ، فى منتصف القرن الخامس الهجرى رجل يغزل الصوف ويتجر به ، ولكنه كان من محبى العلم والعلمــاء ، يطوف على المتفقهين فى الدين ويتوفر على خدمتهم ، وكان اذا سمع كلامهم بكى وتضرع الى الله أن يرزقه ولدا وأن يجعله فقيهــا . ذلك هو والد فيلسوفنا الغزالى . وقد لبى الله دعــاءه فرزقه بنابغة من نوابغ الاسلام ، وامام من أئمة الفكر .

وقد طلب الغزالى العلم وهو فتى على طريقة أهل زمانه ، ولــكن حادثة حدثت له فغيرت أسلوبه فى الدراسة . فقد سافر الى جرجان ليطلب العلم على الامام أبى نصر الاسماعيلى ، وعلق عنه « التعليقة » (أى مذكراته العلمية) ثم قفل راجعا الى طوس .

وفى أثناء رجوعه قطع عليه الطريق ، فأخــذ قطاع الطــريق جميع ما معه ومضوا ، فتبعهم فالتفت اليه رئيسهم وقال : ارجع ، والا هلكت . فقال له الغزالى : « أسألك بالذى ترجو الســلامة منه أن ترد على تعليقتى فقط ، فما هى شىء تنتفعون به » .

فقال له رئيس اللصوص : وماتعليقتك هذه ؟ فقال الغزالى : كتب فى تلك المخلاة هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها • فضحك رئيس اللصوص وقال : كيف تدعى أنك عرفت علمها وقد أخذناها منك فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم ؟ ثم أمر بعض أصـــحابه فأرجع اليه المخلاة •

حركت هذه الحادثة ادراك الغزالى لطريقة طلب العلم ، فقـــــال لنفسه : هذا رجل أنطقه الله ليرشدنى فى أمرى ، فلما وافيت طوس أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظت جميـع ما علقته ، وصرت بحيث لو قطع على الطريق لم أتجرد من علمى •

وقد تنقل الغزالى فى الحواضر العلمية دارسا ومدرسا ، فذهب الى نيسابور ، ولازم الحرمين ، ثم انتقل الى مجلس نظام الملك ، وكان مجلسا حافلا بالأئمة والعلماء ، وتولى التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد • وقد ظل رفيـع المقام ، مقصودا من كل مكان ، ولكن نفسه زهدت فى مظاهر الدنيا ، فترك بغداد وذهب الى بيت الله الحرام فحج ، وتوجه الى الشام ثم اعتكف فى زاويته بالجامع الأموى وهى لا تزال معروفة الى اليوم باسم الـزاوية الغزاليـة • وهنـا تصوف فلبس الثياب الخشنة ، وقلل طعامه وشرابه ، وشرع فى تأليف كتابه « احياء علوم الدين » فكان ثمرة لعلمه وعمله ، سطعت فى فصوله حجة الاسلام ، كما انتظمت بحـــوثه فلســفة الدين والأخلاق ، يتخللها جميعها روح التصوف • وقد كتب عدة كتب أخرى فى الفلسفة الاسلامية ، ولكن أهمها كتاب « احيـاء علوم الدين » •

نظر الغزالى الى الانسان من حيث هو مخلوق ذو غـرض دينى خلقى يسعى لتحقيقه • ومثـل هذا المخلوق يجبأن يتعلم ، والعلوم التى يتقرب بها الى الله تعالى تنقسم الى ظاهرة وباطنـة • والعلوم

الظاهرة قسمان : معاملة بين العبد والله تعالى ، ومعاملة بين الانسان والمجتمع الذى يعيش فيه • والعلوم الباطنة قسمان كذلك : مايجب تطهير القلب منه من الصفات المذمومة ، وما يجب تحليـــة القلب به من الصفات المحمودة • وعلى هذا الأساس الرباعى كتب الغزالى كتابه الذى يقول فى مقدمته :

« ولقد أسسته على أربعة أرباع ، ربع العبادات ، وربع العادات ، وربع المهلكات ، وربع المنجيات » •

ويقول الغزالى أن الذى حداه الى تأليف هـذا الكتاب انه رأى انصراف الناس عن دراسة العلوم الدينية الا لغرض الفتوى والقضاء أو للبراعة فى الجدل والمباهاة فى افحام الخصوم • « فأما طريق علم الآخرة وما درج عليه السلف الصالح ، مما سماه الله سبحانه وتعالى فى كتابه فقها وحكمة وعلما وضياء ونورا وهداية ورشدا ، فقد أصبح من الخلق مطويا ، وصار نسيا منسيا • ولمـــا كان هذا ثلما فى الدين •• رأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب » •

والغزالى هنا يحسن عرض الرأى الاسلامى فى أن التفقه فى الدين ليس وقفا على فئة من الناس يوزعون الرحمات ، كما أنه ليس الغرض منه ارهاف الجدل وافحام الخصوم ، فقـــد ذم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الثرثارين والمتشدقين والمتفيهقين »

وفى الربع الأول يتكلم عن العلم وقواعد العقائد وسائر العبادات الدينية • وهو هنا يستمد من علم الفقيه وادارك الفيلسوف الذى يدرك الأمور ادراكا شاملا ، ويرى علاقاتها بعضها ببعض • ويشرح فى الربع الثانى قسما من أهم أقسام السلوك الانسانى ، فيتكلم فى آداب كسب العيش ، والحلال والحرام ، وآداب الصحبة والأكل

والمعاشرة والعزلة والسفر والأمر بالمعروف والنـهى عن المنكر • وبعبارة أخرى يشرح الدستور الاسلامى فى آداب المجتمع • وفى الربع الثالث ـ ربع المهلكات ـ يتكلم عن رياضـة النفس وكيفية علاج الشهوات والنزعات من آفات القلب واللسان ، فيشرح الغضب والحقد والحسد والبخل والتكبر • وفى ربع المنجيات يعرض للتوبة والصبر والشكر والخوف والرجاء والزهد ومحاسبة النفس •

ولا يدعى الغزالى لنفسه فى هذا الكتاب فضلا لا يستحقه فهـو يقول : « ولقـــد صنف الناس فى بعض هذه المعانى كتبا ، ولكن يتميز هذا الكتاب عنها بخمسة أمور : الأول حل ماعقدوه وكشف ما أجملـوه • الثـانى ترتيب ما بددوه ونظم ما فرقوه • والثالث ايجاز ما طولوه وضبط ما قرروه • الرابع حذف ما كرروه واثبات ما حرروه • الخامس تحقيـق أمور غامضة اعتاصت على الافهام لم يتعرض لها فى الكتاب أصلا » •

يتناول الغزالى موضـوع رياضة النفس وتهذيب الخلق مقارنا بين علم الأخلاق والطب ، فأحدهما طب النفوس ، والآخر طب الأجسام : « ومهما اشتدت عناية الأطباء بضبط قوانين العـــلاج للأبدان ـ وليس فى مرضها الا فوت الحياة الفانيـة ـ فالعناية بضبط قوانين العلاج لأمراض القلوب ـ وفى مرضها فوت حيـاة باقية ـ أولى • وهذا النوع من الطب واجب تعلمه على كل ذى لب ، اذ لا يخلو قلب من القلوب عن أسقام لو أهملت تراكمت ••• »

ومن قديم اختلف الفلاســفة فى امكان تغيير الأخـــلاق فى الانسان ، فمنهم من ينادى بأن أى تغيير غير ممكن ، ومنهـم من يرى أن أى تغيير ميسور • والغـــزالى يندد بمن يقول ان تغيير الأخلاق مستحيل ، ولكنه يكتب بحيطة العالم البصير ، فلا يهمـل جانب الوراثة ولا جانب البيئة فى هذا التغيير : « وكيف ينكر هذا التغيير

فى حق الآدمى وتغيير خلق البهيمة ممكن ـ اذ ينقل البازى من الاستيحاش الى الأنس ، والكلب من شره الأكل الى التأدب والامساك والتخلية والفرس من الجماح الى السلاسة والانقياد ؟.. وكل ذلك تغيير للأخلاق » .

ثم يضيف الى ذلك قوله : « فان النواة ليست بتفاح ولا نخل الا أنها خلقت خلقة يمكن أن تصير نخلة بالتربية ولا تصير تفاحا أصلا ولو بالتربية . فاذا كانت النواة متأثرة بالاختيار حتى تقبل بعض الأحوال دون بعض ، فكذلك الغضب وسائر النزعات لو أردنا قمعها وقهرها بالكلية حتى لا يبقى لها أثر ، لم نقدر عليه أصلا ، ولو أردنا سلاستها وقيادتها بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه . نعم الجبلات مختلفة ، بعضها سريعة القبول ، وبعضها بطيئته .

ثم ينتقل الغزالى الى ما يعتبر فيه من أسبق علماء الاجتماع وعلم النفس الاجرامى فيقول : « أن الناس ... على أربع مراتب : الأولى وهو الانسان الغفل الذى يميز بين الحق والباطل ... ولم تستتم شهوته باتباع اللذات فهذا سريع القبول للعلاج جدا ... والثانية أن يكون قد عرف قبح القبيح ولكنه لم يتعود العمل الصالح ، بل زين له سوء عمله ... فأمره صعب ... اذ عليه قلع ما رسخ فى نفسه أولا من كثرة الاعتياد للفساد ... ثم يغرس فى نفسه صفة الاعتياد للصلاح ، ولكنه بالجملة محل قابل للرياضة ان انتهض لها بجد وتشمير وحزم . والثالثة أن يعتقد فى الأخلاق القبيحة انها الواجبة المستحسنة ... و (يكون قد) تربى عليها ، فهذا يكاد تمتنع معالجته .. الا على الندور ... والرابعة أن يكون مع نشئه على الرأى الفاسد وتربيته على العمل به يرى الفضيلة فى كثرة الشر ... ويباهى به ... وهذا هو أصعب المراتب .

والأول جاهل فقط ، والثانى جاهل وضال ، والثـالث جاهل وضال وفاسق ، والرابع جاهل وضال وفاسق وشرير » ٠

والحق أن الغزالى كان فى هذا البحث من السـابقين الأولين ٠٠٠ ويذكـرنى تقسيمه هذا بتقسيم قريب منه كتبـه العلامة مكنزى (بعد الغزالى بتسعمائة سنة) عن طبقات المجرمين ، فهو يقسمهم الى فئات أربع :

١ ـ فئة المجانين الذين لا مسـئولية عليهم ٠

٢ ـ وفئة تصاب بنوبات واضطرابات عصبية ، أى المجـانين جنونا مؤقتا ٠

٣ ـ وفئة تتبع مبادىء خاطئة ولكن مع اعتقاد أنها صواب ٠

٤ ـ وفئة مستهترة لا تكترث للتبعـة الأخـلاقية فهى ترتكب الذنوب مع اعتقادها أنها خطأ ٠

ويرى مكنزى أن الفئة الأولى حين تجرم تحجز فى المستشفيات العقلية للعلاج ، والثانية يسـتشار فى شـأنها خبير بعلم النفس التحليلى ، والفئة الثالثة تحتاج الى مقوم أخـلاقى لتعديل مقاييسها فى الحياة ٠ أما الفئة الرابعة فليس لها الا العقوبة ٠

وبعد فهذه شهادة العلم الحديث بعـد تسعة قرون لحجة الاسلام الغزالى فى سلامة تفكيره وسبقه فى الفضل ٠

ابن خلدون

يحق للناطقين بالضاد أينما كانوا وأيا كانت ملتهم ونحلتهم ، كما يحق لكل منتم للتراث الاسلامى العريق ، أن يفخر بابن خلدون أحد بناة التاريخ الاسلامى • ولقد بنى ابن خلدون التاريخ فى صورتين : بنى فى صرح التاريخ الاسلامى بما قام به من أعمال ، وبما خلفه من آراء ونظريات ، وبنى علم التاريخ نفسه بمنهجه الذى انتهجه فى كتابته ، وأسلوبه الذى استحدثه فى تدوين الحوادث والتاريخ للأمم •

وليس ابن خلدون علما من أعلام التاريخ الاسلامى فحسب ، بل انه قائد من قادة الفكر الانسانى ، ولقد اعترفت له أوربا بفضل سبقه فى بعض ميادين البحث التى طرقها ، فهو من أجل ذلك مفكر عالمى لم يكتب لعصره أو لأمته أو للغته فقط ، بل كتب لكل من شاء أن يتفقه فى سياسة الدولة وعلم العمران البشرى • وقد قدر لكتابته أن تترجم الى معظم اللغات الحية •

ولقد مكن لابن خلدون فى هذه المنزلة عدة عوامل ، أهمها عبقرية ممتازة كشفت له عن مغاليق الأمور ، واطلاع واسع على ماكتبه من سبقوه من المفكرين ، وملاحظة دقيقة ناقدة لكل ماكان يدور حوله فى عصر حافل بالتقلبات السياسية ، عاش فيه ، وخاض غمار اضطراباته ، بل سطر كثيرا من صفحاته بما قام به من النشاط السياسى والعملى فى الدول المتعددة التى خدمها •

وحسبنا فى تقدير هذا المؤرخ الجليل أن نذكرأنه تقلد فى الدول الاسلامية التى عاصرها فى القرن الثامن الهجرى أسمى المراتب

العلمية والسياسية والادارية ـ فى تونس ، والمغـرب الأقصى ، ودولة بنى الأحمر فى الأندلس ، ثم فى مصر والشام ، متنقـــلا من كرسى الأستاذ يفيض علمه الغزير على طلابه ، الى منصة القضاء للفصل فى خصومات الناس ، الى الوزارة والحجابة وما كان لهما من العز والسلطان ، الى السفارات الخارجية وما حملته من رسائل ووساطات بين الدول ، وما تضمنته من تضلع فى السياسة وحصافة فى الرأى .

هذه هى خبرة هذا العالم الذى جمع ثمار اتصالاته بدول الاسلام القائمة لعهده فى ثلاث قارات ، أوربا وآسيا وافريقيـــة . وقـــد استودع هذه الخبرة الواسعة ماكتبه فى التاريخ .

غير أن حياة ابن خلدون لم تكن كلها هناءة وســعادة . وما كان لمثل طبيعته وطموحه أن يسلك دائما سبيلا سهلا معبدا ، فقد كان فى عصره ثورات وفتن ، وسقوط دول وقيام أخرى ، وقد شاء ابن خلدون أن يخب فيها ويضع ، فكان من نصيبه أن يسقط مــرة وأن يرتفع أخرى . فقد عرف ابن خلدون عز الحكم ، كما ذاق عزلة السجن ، وتمتع بسلطان القرب والحظوة من الملوك والخلفاء ، كما اصطلى بنار الجفوة وتقلب فى أشواك الدسائس . ولقد كان ذلك كله أعظم الأثر فى انضاج قريحته ، وتمحيص رأيه ، حين اعتزل الحياة العامة وعكف على التأليف فأخرج لنا ثروة من العلم أصبحت تراثا عريقا فى الشرق والغرب .

والحق أن عددا قليلا من علماء العرب قد حظى بمثل ماحظى به ابن خلدون من علماء أوروبا وأمريكا ، ترجمة ودراسة ونقدا .

وأهم ما قام به ابن خلدون فى خدمة الحياة العلمية هى « المقدمة» التى مهد بها لكتابه الذى سماه « كتاب العبر ، وديوان المبتـــدأ والخبر » والذى يقول فيه : « فأنشأت فى التاريخ كتابا ، رفعت

به عن أحوال الناشئة من الأجيال حجابا ، وفصلته فى الأخبار والاعتبار بابا بابا ، وأبديت فيه لأولية الدول والعمران عللا وأسبابا ... وسلكت في ترتيبه وتبويبه مسلكا غريبا ، واخترعته من بين المناحى مذهبا عجيبا ، وطريقة متبدعة وأسلوبا ، وشرحت فيه من أحوال العمران والتمدن وما يعرض فى الاجتماع الانسانى من العوارض الذاتية ما يمتعك بعلل الكوائن وأسبابها ، ويعرفك كيف دخل أهل الدول من أبوابها » .

والحق أن ابن خلدون صادق فى وصف كتابه ، فقد اخترع علما جديدا هو فلسفة التاريخ التى ضمنها عدة نواح من الدراسات الاجتماعية التى لم يكن سبق اليها سبقا جديا ، فكل ماكان قد كتب قبله فى هذا الموضوع لم يكن الا شذرات لا تسمو الى مرتبة البحث العلمى المنظم ، أو النظريات والمذاهب المؤسسة .

وابن خلدون نفسه يعترف باطلاعه على كل ما كان فى متناول اليد من تلك الكتب . ولا يسع الناقد البصير الا أن ينسب له الفضل فى انشاء علم جديد وتبويبه وجمع شتات ماكان متفرقا من الافكار التى تتصل به . وبذلك سن للمؤرخين من بعده سنة جديدة فى تسطير التاريخ بعد عرضه على المقاييس التى وصفها ، ناهيا عن النقل غير الممحص والأخذ بالأساطير المتداولة مهما يكن العقل والعرف وطبيعة العمران على خلاف معها .

ولقد نترقب بعد ذلك أن يكون « التاريخ » الذى كتبه ابن خلدون خاليا من تلك المثالب ، ولكن الحقيقة أنه وقع فى بعضها . ونحن اذا تجاوزنا عن هذه الهنات ــ وما كنا لندعى لابن خلدون كمالا أو شبه كمال ــ وجدنا فيما كتبه مايكفى لاجلال مقامه العلمى .

والحق أن منزلته العلمية لا تستمد من كتابه فى « التاريخ » بمقدار ما تستمد من « المقدمة » التى ضمنها ماسماه علما جديدا ، هو علم « العمران البشرى والاجتماع الانسانى » . وهو ينظر الى المجتمع البشرى نظرة شاملة لجميع نواحيه ، ثم يتتبع كل ناحية بالدرس منذ نشأتها فى صورتها الأولية الساذجة الى أن تصل الى كماله . ولكن ابن خلدون لا يترك المجتمع عند هذه المرحلة ، بل يتعقب علل انحلاله واضمحلاله . فيصف تدهور الدول وقيام غيرها على أنقاضها . فيعرض لبحوث أصبحت الآن من أهم الدراسات الاجتماعية والاقتصادية ، مثل « طبيعة العمران فى الخليقة وما يعرض فيها من البدو والحضر ، والتغلب والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ونحوها وما لذلك من العلل والأسباب » ويتناول البحث فى الأقاليم وطبيعتها وأثر المعتدل والمنحرف منها فى السكان وأخلاقهم وألوانهم مما يدرس الآن باسم أثر البيئة فى الكائنات . وعندما يتناول البحث فى العمران البدوى والأمم المتوحشة ونشأة القبيلة ، يعرض لنظرية من أشهر نظرياته وهى نظرية « العصبية » وأثرها فى تكوين الدولة ، وعلاقتها بالدعوة الدينية والسياسية ، وامكان الاستغناء عنها بعد استقرار الدولة ، ويستطرد الى البحث فى العلاقة بين الملك والخلافة وولاية العهد ، ويتناول البحث فى مركز البابا والبطرق فى الملة النصرانية والكوهن فى اليهودية .

ويخصص فصلا ممتعا لنشأة البلدان والأمصار ، وضرورة التعاون ، ونحن نقرر أنه ليس لابن خلدون فضل فى هذا الفصل سوى حسن التنظيم وتنويع التمثيل ، اذ أن هذا الموضوع كان مما سبق أن كتب فيه أفلاطون فى كتابه « الجمهورية » والفارابى فى « المدينة الفاضلة » .

ويخصص ابن خلدون جزءا من مقدمته لفرع آخر من علم العمران البشرى ، هو ما يسمى اليوم « الاقتصاد السـياسى » ليتـكلم فى الأسعار وتوزيع الصناعات على المناطق المختلفة فى الدولة ، ثم فى العمل والانتاج والأجور ، ثم فى الزراعة والتجارة ووسائل النقل . ويخصص فصلا للاحتكار . ويختم المقدمة بفصل طويل ذى خمسين شعبة يتكلم فيها عن الحاجات العقلية للدولة ، فيلم بالعلوم وأنواعها والتعليم وطرائقه . فهو بذلك يتتبع نشأة الدولة وسيرها فى طريق التقدم نحو المقومات المادية والعقلية والروحية ، مبتدئا بضرورات الحياة فى أصغر المجتمعات وأقلها نصيبا من الحضارة ، متـدرجا الى الدولة المتحضرة وما تحتاج اليه من صناعة وتجـارة وعلوم وفنـون .

ومن أصدق نظرياته الاجتماعية ماكتبـه فى « أن المغلـوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب ، فى شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله » ، والسبب فى ذلك أن النفس أبدا تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت اليه ، أما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه ، أو لمـا تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعى ، انما هو لكمال الغالب .. ولذلك نرى المغلوب يتشبه أبدا بالغالب فى ملبسه ومركبه وسلاحه .

ويتوسع ابن خلدون فى تطبيق النظرية على كل من يرى الكمال فى غيره ، أى أنه لا يرى أن تكون الغلبة دائما جسمية أو سياسية ، بل يكفى أن تكون معنوية ، ولذلك يقول ان الأمم تقـلد جيـرانها اذا كانوا أعظم منها ، ويقلد الأبناء آباءهم ، والتـلاميذ معلميهـم لاعتقادهم كمالهم .

ويرى أن للدولة أعمارا طبيعية كما للأشخاص . وهو يحدد عمر الـدولة تقريبا بمائة وعشرين سنة تمر فى خلالها بطور النشوء والترسخ ثم الهرم ، ولقد يجد ابن خـلدون لـذلك مثلا كثيرة فى التـاريخ ، ولكننا نرى أن فى المجتمع من العوامل الأخرى ما قد

يعجل بآجل الدولة قبل ذلك ، كما قد يؤجله الى أبعد من ذلك بكثير .

وتقوم الدولة فى رأى ابن خلدون على العدل والمحبة المتبادلة بين الوالى والرعية « ليلوذوا به ، ويشربوا محبته ، ويستميتوا دونه فى محاربة أعدائه ، فيستقيم الأمر من كل جانب » .

ولعل أفضل ما أوجه اليه سامعى هو أن يقرأ كل من يستطيع ذلك الفصل الذى كتبه « فى أن الأمة اذا غلبت وصارت فى ملك غيرها أسرع اليها الفناء » .

وأخيرا يدعونا الى الاعجاب بابن خلدون تواضعه فى آخر الكتاب ، على الرغم من شموله لشعب عمم العمران البشرى ، اذ يقول :« ولعل من يأتى بعدنا ممن يؤيد الله بفكرصحيح وعلم مبين ، يغوص من مسائله على أكثر مما كتبنا ، فليس على مستنبط الفن احصاء مسائله ، وانما عليه تعيين موضع العلم وتنويع فصوله .. والمتأخرون يلحقون المسائل من بعده شيئا فشيئا ، الى أن يكمل ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

وبعد فحسبنا شهادة الأستاذ فلنت FLINT اذ يقول عن ابن خلدون : « ليس أفلاطون ، ولا أرسطاليس ، ولا أغسطوس نظراء له ، أما من عداهم فليسوا أهلا لمجرد أن يقرن اسمهم باسمه » .

أبو بكر الصديق

سنقضى الليلة فترة مع القوة السمحة ، والسماحة القوية ، مــع التواضع الأبى ، والاباء المتـواضع ، مع التفـانى فى الاخــلاص ، والاخلاص فى التفانى ، مع التعقل العطوف ، والعاطفة المتعقلة ، مـع أبى بكر الصديق رضى الله عنه ٠

كان أبو بكر من أشرف أشراف العرب ، وكانت اليه الديات والمغارم يحكم فيها ، فكان اذا حتمل شيئا فسأل فيه قريشـا صــدقوه ، ونفذوه ، وآن احتملها غيره خذلوه ٠

وهذا الاسلام الباهر يأبى الا أن يثبت من أول يوم فى حياته فضله وميزته ، فيجتذب اليه فى وقت واحد أشرف أشراف العرب ، أبابكر المسموع الكلمة ، الرهيب الجانب كما يجتذب اليه عبدا من العبيد الأذلاء الذين لم يكن العرب ليقيموا لهم وزنا ، زيد بن حارثة ٠ كأنما يعلن الاسلام منذ يومه الأول أنه دين الغنى والفقـير ، دين الشريف والوضيع ، دين القوى والضعيف وكان من بهاء هذا الدين الباهر أنه لم يجمع بين هؤلاء ليبقى عليهم فى طبقاتهم المختلفة ، ليستغل بعضهم لمصلحة بعض ، بل سوى بينهم فكانوا كأسنان المشط ، لا فضــل لعربيهـم على عجميهم الا بالتقوى ، معلنا أن الجنة لمن أطاع الله ولو كان عبدا حبشيا ، والنار لمن عصاه ولو كان شريفا قرشيا ٠

وكان من عظمة تلك الدعوة أنها استهوت نفس الشريف فأحالت فيه عنجهية الجاهلية الى عزة اسلامية ، تفخر بمساواته بمـن كان من قبل عبدآ زريا ، وكان من عظمة هذه الدعوة أنها استهوت نفس

المستضعف فرفعته من مذلة مهينة الى عزة لم تشبها غطرسة ولا استعلاء ولاحب للزهو على من سوى الاسلام بينه وبينهم ممن كانوا له من قبل سادة وأمراء • وما أحسبها مصادفة أن تشتمل أول خطبة لأبى بكر ، بعد مبايعته بالخلافة ، على هذا الدستور السامى فى حكم الأمم ، وهو الذى طبقه الاسلام فى أول يوم من ظهوره ، حين لبى دعوته الشريف الجليل ، والعبد الذليل ، فقد قال يوم مبايعته : « ألا ان أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ الحق له ، وأضعفكم عندى القوى حتى آخذ الحق منه • »

هذا هو أبوبكر الشريف القوى يسلم يوم اسلامه العبدالضعيف ، ويسوى بينهما الاسلام • وهذا هو أبو بكر الخليفة الذى يعلن أول ما يعلن أن أقوى المسلمين عنده الضعيف حتى ينتصف له، وأن أضعف المسلمين لديه هو القوى حتى ينتصف منه •

وسنقف الليلة مع أبى بكر وقفات قصيرة فى نقط من حياته كانت نقط تحول فى تاريخ الدعوة الاسلامية وحياة المجتمع الاسلامى • سنقف معه يوم أسلم ، ويوم هاجر ، ويوم تولى الخلافة •

يوم أسلم : كان أبو بكر رجلا سمحا ، رضى الخلق ، أليفا مألوفا، حسن الحديث والمجالسة ، فلا عجب ان كان سريع التلبية لداعى الاسلام ، وكأن الله تعالى كان قد أعده لنصرة نبيه بهذه الصفات التى جعلته أسبق الناس الى الاسلام ، وأسبقهم الى الدعوة اليه ، وأكثرهم قبولا لدى من دعاهم للدخول فى دين الله • وقد كانت سيرته فى الجاهلية كريمة عفيفة، فكان له بذلك سند اذ يدعو الناس الى الاسلام، لأنه لم يكن من الممكن أن يتهم ممن يدعوهم بأنه كان رجلا نفعيا أو مخدوعا • فقد كان ذا رأى رشيد عرف عنه ، كما كان ذا خلق سديد عرف به ، حتى انه كان قد حرم على نفسه الخمر فى الجاهلية وكان له ثروة كبيرة تقدر بأربعين ألف درهم أنفقها فى سبيل الله ، حتى انه

ما كان يرى عبدا يعذب بسبب اسلامه الا اشتراه وأعتقه . وقصة بلال وتعذيبه على يد سيده أمية بن خلف من أشهر قصص البطولة الاسلامية ، بطولة بلال وبطولة أبى بكر . فقد كان أمية يخرج بلالا اذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره فى بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى ، فيقول وهو فى هذا البلاء : أحد أحد . ومر به أبو بكر – رضى الله عنه – يوما ، وهم يصنعون به ذلك فقال لامية : ألا تتقى الله فى هذا المسكين ؟ حتى متى ! فقال له أمية : أنت الذى أفسدته ، فأنقذه مما ترى . فقال أبو بكر : أفعل ، عندى غلام أسود أجلد منه وأقوى ، على دينك ، أعطيكه به . قال قد قبلت : فقال : هو لك . فأعطاه أبو بكر غلامه ذاك ، وأخذ بلالا فأعتقه .

ولئن كان أبو بكر سمحا عطوفا على بلال بما فعل معه من انقاذه من العذاب ثم بعتقه ، فقد كان أبوبكر كذلك سمحا عطوفا على عبده الاسود الذى كان على دين قريش ، لانه لم يعذبه ، ولم يرغمه على الاسلام ، بل نزل عنه لكافر مثله ، فكانت سماحته مضاعفة .

وكان لامرأة من بنى عبد الدار أمة وابنتها ، فمر بهما أبو بكر وهما تحملان طحينا لسيدتهما وهى تقول : والله لا أعتقكما أبدا فقال أبو بكر : حل يا أم فلان (أى تحللى من يمينك) فقالت : حل أنت أفسدتهما فأعتقهما . فقال : فبكم هما ؟ قالت : بكذا وكذا . قال : قد أخذتهما وهما حرتان ، أرجعا اليها طحينها . وهنا تتجلى سماحة جديدة للاسلام ، تتجلى فى هاتين المسلمتين الضعيفتين وقد أصبحتا قويتين بالحرية التى منحهما أبو بكر . ولكنهما لا تبطران ولا تطغيان ، فانهما لم ترضيا أن ترجعا الطحين الى سيدتهما السابقة ، بل قالتا : أو نفرغ منه يا أبا بكر ثم نرده اليها ؟ وتظهر سماحة أبى بكر الذى اشتراهما وأعتقهما ، إذ يجيبها بقوله : وذلك ان شئتما .

ولكن سماحة أبى بكر لم تقتصر على استنقاذه للمسلمين من العبيد المستضعفين ، وبلغوا مع ذلك عددا كبيرا ، فقد جعل يدعو الى الاسلام من يثق بهم من قومه ممن يجالسهم . ويكفى أن نذكر ممن أسلموا على يديه: عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد ابن أبى وقاص ، وطلحة بن عبيد الله .

ذلك هو أبو بكر ، السريع الى الاسلام ، والداعية الذى استجابت له القلوب ، فلا عجب أن يقول فيه الله تعالى : « فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى . » ويقول : « وما لاحد عنده من نعمة تجزى الا ابتغاء وجه ربه الاعلى ، ولسوف يرضى . »

ولا عجب أن يقول فيه النبى عليه الصلاة والسلام : « ما دعوت أحدا الى الاسلام الا كانت له كبوة ، غير أبى بكر . »

يوم هاجر : ولقد كانت حياة أبى بكر منذ أسلم بطولة متدفقة فى صور مختلفة من الاقدام والفداء والتضحية . ولكن يوما من أيامه يتسامى عليها بما فعل فيه أبو بكر . ذلك هو يوم هجرته مع الرسول من مكة الى المدينة . ففى ذلك اليوم كانت قوات قريش قد تجمعت للايقاع بالنبى الكريم وصحبه ، وقد تربصوا بهم الدوائر . وما كان ليقدم على مشاركة النبى فى هذه المحنة الا من كان أول المؤمنين ، وأقوى المؤمنين ، وأعظمهم استعذابا للتضحية والفداء .

كان كثير من المسلمين قد تسللوا الى المدينة مهاجرين قبل النبى صلى الله عليه وسلم . وانتظر الرسول حتى يأذن الله له بالهجرة . وأراد أبو بكر أن يكون من السابقين بالهجرة فاستأذن فى ذلك رسول الله ، فقال له عليه الصلاة والسلام : لا تعجل ، لعل الله يجعل لك صاحبا . وهنا حدثته نفسه الصافية أن النبى ربما كان يعنى نفسه حين قال ذلك ، فابتاع راحلتين فاحتبسهما فى داره يعلفهما اعدادا لذلك .

وجاء اليوم الذى أذن فيه الله تعالى للرسول بالهجرة ، فذهب الى بيت أبى بكر ومنه معه خرج مهاجرا الى حيث أظهره الله على عدوه ، خرجا الى الغار فوصلا اليه ليلا ، فدخل أبو بكر رضى الله عنه قبل الرسول فلمس الغار لينظر أفيه سبع أو حية ، يقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه ولقد كرم الله تعالى أبا بكر فأنزل فى حقه القرآن فى هذه الحادثة ، كما أنزل فى شأنه القرآن فى مناسبات أخرى • فأى جزاء أعظم لأبى بكر من هذا ، اذ يفتدى الرسول بنفسه فيؤويه فى بيته قبل خروجه للهجرة ، ويفتش الغار المهجور ليلا ليتلقى ما قد يكون فيه من أذى حماية له عليه الصلاة والسلام ؟ لقد نال أعظم جزاء فى قوله تعالى : « الا تنصروه فقد نصره الله ، اذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين ، اذ هما فى الغار ، اذ يقول لصاحبه : لا تحزن ، ان الله معنا فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم • ».

يوم تولى الخلافة : لقد رأينا صورة من حياة أبى بكر يوم أسلم ودعا الى الاسلام ، وعشنا معه لحظة يوم هاجر مع الرسول الكريم • فلنعش معه لحظة خاطفة يوم تولى الخلافة •

لقد كان عبء الخلافة على أبى بكر أثقل عبء فى التاريخ الاسلامى • فهناك مجتمع جديد يفيض حيوية وايمانا ، ولكنه فقد فجأة قائده الدينى والدنيوى ، وألفى نفسه كسفينة بدون سكان • كان هذا المجتمع قد تعود أن يطيع رسول الله ، يحبه ويرهب قوة الوحى التى كانت تهز القلوب • واليوم يموت الرسول الكريم ، ويجد هذا المجتمع نفسه بغير زعيم ، ويأخذ الهلع بقلوب المسلمين لفقد الرسول ، فيصعد أبو بكر المنبر ويقول :

« أشهد ألا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله ، وأشهد أن الكتاب كما نزل ، وأن الكتاب كما شرع ،

وأن الحديث كما حدث ، وأن القول كما قال ، وأن الله هو الحق المبين ... أيها الناس ، من كان يعبد محمدا فان محمـــدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت ... وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم . »

وهنا ثاب الناس الى رشدهم، ونزلت على أسماعهم هذه الآية كأنهم يسمعونها لأول مرة ، حتى لقد قال عمر : « فما هـــو الا أن سمعت أبا بكر يتلوها فوقعت الى الارض ما تحملنى رجلاى . »

وهكذا نجد هذه النفس الوثابة ، السريعة الى الخير ، الحاسمة فى الامور ، تفعل يوم وفاة الرسول مثل ما فعلت يوم بعثة الرسول : اقدام سريع لقبول الواقع ، ونهوض بالدعوة ، واضطلاع بالمسئولية .

ولقد اقتبست لكم فى أول هذا الحديث عبارة قالها أبو بكر فى حطبة له بعد مبايعته . فلنختتم حديثنا بهذه الخطبة التى مصى عليها أكثر س ثلاثة عشر قرنا ، وما زالت على جدتها تصلح برنامجا لاصلح حكام يتولون شئون أمة :

« أيها الناس ، انى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فان رأيتمونى على حق فأعينونى ، وان رأيتمونى على باطل فسددونى . أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فاذا عصيته فلا طاعة لى عليكم . ألا ان أقواكم عندى الضعيف ، حتى آخذ الحق له ، وأضعفكم عندى القوى ، حتى آخذ الحق منه . أقول هذا وأستغفر الله لى ولكم .

وبعد فهذا هو أبو بكر أحد الاربعة الذين أشرق عليهم نور الاسلام أول ما أشرق ، أحد الأربعة الذين كانوا أول من لبى دعوة محمــد صلى الله عليه وسلم ، أحد الأربعــة الذين ســبقوا الى الهـــداية وسبقت الى قلوبهم الهداية .

أبو حنيفة النعمان

تحدثت اليكم في هذه السلسلة عن أربعة من أبطال المسلمين « كانوا من الحكام والولاة والخلفاء ، ظهرت بطولتهم فيما قاموا به للمجتمع الاسلامي من خدمات في أثناء ولايتهم للحكم ، وأريد أن أتحدث اليكم الليلة عن بطل اسلامي من طراز آخر ، عن بطل أدى خدماته للعالم الاسلامي وهو في غير منصب من مناصب الدولة ، ذلك هو الامام الأعظم أبو حنيفة النعمان ، امام المشرعين ، وقدوة المجتهدين ، ومؤسس مدرسة الرأي في الفقه الاسلامي ، الشجاع الذي لم يخش اعلان رأيه ، والفاتح الذي دانت له الحياة ، فلم يأخذ منها الا بمقدار ما يحقق قول الله تعالى : « والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » .

ذلك هو بطل الفكر والرأي الذي وصفه تلميذه العظيم أبو يوسف فقال : « قال تعالى : ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد ، كان علمي به أنه شديد الذب عن المحارم ، شديد الورع أن ينطق في دين الله تعالى بلا علم ، يحب أن يطاع الله تعالى ، ولا ينافس أهل الدنيا فيما في يديهم ، طويل الصمت ، دائم الفكر ، على علم واسع ، لم يكن مهذارا ولا ترثارا ، ان سئل عن مسألة كان له علم بها ، أجاب : والأقاس مستغنيا عن الناس ، لا يميل الى طمع ، ولا يذكر الناس الا بخير » .

هذا وصف رجل لازم أستاذه طول حياته ، فلخص في كل كلمة منه ناحية من نواحي العظمة التي يتسع لها حديث قائم بذاته .

كان ابو حنيفة تاجرا يكسب من عمل يده ، يذهب الى دكانه ليزاول التجارة ، ويذهب الى المسجد ليعلم الفقه ، وما تاجر تاجر أنزه ولا أعف ولا أسخى مما تاجر أبوحنيفة ، ولا درس أستاذ أعظم ولا أدق ولا أكثر تواضعا مما درس أبو حنيفه .

لم يقبل ابو حنيفة عطية أمير ولا رفد وال ، وانما ضرب أروع الامثلة فى الكفاح ، وأغدق الله عليه الرزق كسبا حلالا ، فأنفقه فى سبيل الله كما فعل أبو بكر الصديق بثروته .

نزلت برجل ضائقة فتجلد لها حتى عضه الجوع هو وزوجته وابنته فاضطر الى السؤال ، وكان يعرف عن أبى حنيفة سماحته ، فتوجه الى حلقة درسه ، ولكن الحياء عقد لسانه فلم يستطع أن يبوح لأبى حنيفة بما جاء به اليه ، وقام الرجل عائداً الى بيته ، فتبعه أبو حنيفة ، وكان قد أردك بذكائه مايدور بنفس الرجل ، وعرف البيت ، ثم عاد اليه فى الليل ومعه صرة فيها خمسة آلاف درهم ، وطرق باب الرجل وقال له : وضعت عند بابك شيئا هو لك » ورجع مسرعا قبل أن يراه الرجل ابقاء على ماء وجهه ، فلما أخذ الرجل الصرة وجد فيها مع النقود هذه العبارة : « هذا المقدار جاء به أبوحنيفة اليك من وجه حلال ، فليفرغ بالك » .

وجاءته مرة امرأة عجوز تريد شراء ثوب ، ورجته ان يترفق بها فى الثمن ، فعرض عليها ثوبا وقال لها : انه بأربعة دراهم ، وظنت المرأة أنه يهزأ بها ، فقالت له : لاتسخر منى وأنا عجوز لا حيلة لى ، فقال لها : ان هذا هو ثمن الثوب ، فقد اشتريت ثوبين فبعت أحدهما بالثمن كله ، الا أربعة دراهم ، وهذه الدراهم الباقية هى ما أطلبه منك ثمنا للثوب الباقى .

هذا مثل من أمثلة قناعة التاجر الفقيه الذى فهم كما لم يفهم أحد خيرا منه قوله عليه الصلاة والسلام : « الصدقة الخفية فى البيع والشراء » .

كان هذا الشيخ الثرى المتقلب فى نعمة الله يزيد نفسه من نعم الله بمقاسمتها مع غيره • وكأنما كان ينظر الى نعمة المال فى يده كما كان ينظر الى نعمة العلم فى عقله ، فكان لا يرى نفسه متمتعا باحداها الا اذا شارك فيها غيره ، فكما كان يفيض بعلمه على تلاميذه كان يغدق عليهم وعلى غيرهم من ماله • فكان اذا كسا نفسه حلة جديدة كسا بمثلها أحد العلماء • بل انه سبق تولوستوى بألف سنة فى النزول عن ماله ، ولكن بما هو أحكم وأحصف مما فعل تولوستوى • فقد كان أبو حنيفة ـ رضى الله عنه ـ يخرج عن كل ماله للمعوزين ، ولكنه كان يستبقى لأهله مايكفى نفقتهم ، فكان بذلك مطبقا للمبادىء الاسلامية التى تقول ان خير الصدقة ما أبقت غنى • وما كان الامام الأعظم ليتقدم بالاحسان الى الفقراء تاركا نفسه وأهله فقراء عالة على الناس • ولذلك كان يقول : « ما ملكت أكثر من أربعة آلاف درهم منذ أكثر من أربعين سنة الا أخرجته ، وانما أمسكها لقول على رضى الله عنه : أربعة آلاف فما دونها نفقة • ولولا أنى أخاف أن ألجأ الى هؤلاء ماتركت منها درهما واحدا »

هذا الزهد الحصيف كان مبدأ راسخا عند أبى حنيفة فى جميع تصرفاته المالية والعلمية : ترجم عن نفسه حلما وورعا ونزاهة•

حدث أحد أصحابه قال : كنت عند أبى حنيفة وهو فى مجلسه وعنده أصحابه ، فجاء شاب فألقى عليه مسألة فأجاب فيها فقال له : أخطأت يا أبا حنيفة ، فسكت • ثم ألقى عليه مسألة أخرى فأجابه ، فقال له :

أخطأت يا أبا حنيفة • فقلت لمن حوله من أصحابه : سبحان الله ! لا تعظمون هذا الشيخ وتبجلونه ! يجىء شاب فيخطئه وأنتم سكوت !

فالتفت الى أبو حنيفة وقال: دعهم فانى قد عودتهم هـــذا من نفسى ٠

بل حدث مرة ماهو أعظم من هـــذا ، فقد كان أبو حنيفة فى المسجد ، فقام رجل فى ناحية فجعل يسبه ، فما قطع حديثه ٠ وقام الى داره فتبعه الرجل يشتمه ويصيح ، وأبو حنيفة لا يرد عليه ، حتى بلغ داره فوقف عند البـاب واستقبل الرجل بوجهه قائلا : هذه دارى أريد الدخول ، فان كنت ستتم باقى كلامك فأتمه حتى لا يبقى شيء مما عندك حتى لا تخاف الفوت ٠ فخجل الرجل وقال : اجعلنى فى حل ٠ فقال له : أنت فى حل ٠

واجتمع الفقهـــاء يوما لدى الأمير يستفتيهم ، فأدلى كل منهم برأيه ، أدلى أبو حنيفة برأيه ، وأدلى الحســـن بن عمارة برأيه ٠ فقال أبوحنيفة : أخطأنا وأصاب الحسن ٠ هذه هى شجاعة العالم النزيه الذى يسعى وراء الحق ، لا وراء رأيه هو ٠ ولقد أعظمه ذلك فى عين الحسن ، فكان يأخذ بركابه وهو يقول : والله ما أدركنا أحدا تكلم فى الفقه أبلغ ولا أصبر ولا أحضر جوابا منك ، وانك لسيد من تكلم فى الفقه فى وقتك غير مدافع ٠

بهذا التواضع والتورع أخذ تلاميذه كما أخذ ابنه حمادا ٠ فقد تقدم حماد ابنه يوما ليصلى بالناس اماما ، فأخذ أبوه بمجامع ثوبه فأخره عن موقف الامام وقدم غيره عليه ٠ فقال له حماد :

يا أبت تفضحنى ؟ فقال له : بل أردت أن تفضح نفسك فمنعتك ، اذ لو صليت فقال قائل : أعيدوا صلاتكم خلف هذا فسطر فى الكتب ويبقى عاره الى يوم القيامة ٠

غير أن هذا التواضع الذى أخذ به نفسه وابنه وتلاميذه لم يكن لينزل بأحد منهم الى درجة المذلة والخنوع ٠ فهذا تلميذه محمد بن

الحسن أحد الصاحبين ، كان جالسا ذات يوم في جماعة فأقبل الرشيد . فقاموا الا محمدا ، ومضى الرشيد لشأنه ، ثم جاء حاجب الخليفة ينادى : محمد بن الحسن ، فارتجفت القلوب لما سيصيب تلميذ أبى حنيفة من غضب الرشيد . فلما كان بين يديه سأله الرشيد لماذا انفرد بالجلوس عندما قدم عليهم . فقال له محمد : كرهت أن أخرج عن الطبقة التى جعلتنى فيها . انك أهلتنى للعلم فكرهت أن أخرج منه الى طبقة الخدمة التى هى خارجة منه . وأن ابن عمك ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : من أحب أن يتمثل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار . وانما أراد بذلك العلماء . فقال الرشيد : صدقت يا محمد .

كان أبوحنيفة فقيها اماما ، وتاجرا كسوبا ، وأبا بارا ، وصديقا مخلصا ، ومواطنا ساميا . وأهم ما أهله لبلوغ درجة الكمال فيما يقرب من العصمة فى تصرفاته أمران : أحدهما دأبه فى الخروج عن ثروته عاما بعد عام ، حتى لايطغيه المال ويصرفه عن العلم ، وثانيهما دأبه فى تلاوة القرآن تلاوة الفهم والتدبر ، فقد رووا أنه قرأ القرآن فى حياته سبعة آلاف مرة . بذلك استطاع أن يبقى فى هذه الحياة الدنيا ولكن بالقدر الذى يجعله بصيرا بها وبشئونها ، لكى يشرع تشريعا عمليا لأهلها ، ولكنه كان مع ذلك خارجا من سطوتها وخارجا على سطوتها فلم تملك عليه نفسه ، ولذلك توافر له من الزمن والجهد مابذله لعلمه ولتلاميذه . خرج ذات ليلة من صلاة العشاء ، ونعله فى يده ، فكلمه تلميذه زفر فى مسألة ، فبقيا يتناقشان فيها حتى نودى لصلاة الفجر وهما قائمان ، فرجعا الى داخل المسجد ، ورجعا الى المسألة بعد الصلاة ومازالا على ذلك حتى استقرت المسألة على قول أبى حنيفة .

وكان فى تنزهه وتحرجه وتعصمه لا يحب العجلة فى الدرس والفتوى ، بل كان يسخو بزمنه وبعلمه وبجهده ، ويحتشد للأمر

احتشادا ليعمل فيها فكره • ولذلك كان لا يفتى اذا سئل وهو فى الطريق ويقول : « لا تسألنى عن أمر الدين وأنا ماش ، أو أحدث الناس ، أو نائم ، أو متكىء ، فان هذه الأماكن لايجتمع فيها عقل الرجال » •

وقد وصف جعفر بن ربيع هذا الأستاذ ومدرسته فقال : « أقمت عند أبى حنيفة خمس سنين ، فما رأيت أطول منه صمتا ، فاذا سئل عن الفقه تفتح وسال كالوادى ، وسمعت له دويا وجهارة فى الكلام » •

حدثتكم أن أباحنيفة كان ينظر الى ماله نظرته الى علمه ، يشارك فى كل منهما من حوله • فكما أنه لم يكن ينتظر سائلا ليبذل من ماله ، لم يكن كذلك ينتظر توصية أو وساطة لتعليم متعلم • فقد جاءه مرة رجل بكتاب توصية لكى يحدثه فى العلم ، فقرعه قائلا : ماهكذا يطلب العلم ، قد أخذالله الميثاق على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه • وقال له ان العالم لا يكون له خواص يختصهم بعلمه ، فهو انما يعلم الناس ويريد بتعليمه وجه الله •

هذاالرجل الذى تواضع ففضل غيره على نفسه فى حر ماله ، وصمت ليتكلم تلاميذه ، كان أشجع مفكر فى الاسلام بعد صحابة الرسول عليه الصلاة والسلام • فقد تقدم فى ثقة مستمدة من روح الله ، وايمان قائم على فهم نصوص القرآن والحديث ، وذهن متوقد متحرر الا من البحث عن الحقيقة ، فاجتهد فأصدر فتاواه مطمئنا الى أنه ان اجتهد فأصاب فله أجران ، أجر اجتهاده وأجر اصابته ، وان اجتهد فأخطأ فله أجر اجتهاده •

هذا الرجل الذى سخر ماله وعلمه وذهنه وزمنه فى خدمة الدين لم يستطع حاكم أو خليفة أن يسخر قلمه أو رأيه فى سبيل

جاهه وسلطانه . حتى أنه حين دعى لولاية القضاء رفض . دعاه الخليفة الأموى يزيد فرفض ، وحبسه وعذبه ليحمله على القبول فلم يزده ذلك الا اباء . ودالت دولة بنى أمية وقامت دولة بنى العباس فدعاه أبوجعفر المنصور لولاية قضائه فلم يقبل ، وسجنه وعذبه فلم ينل من ارادته .

ولقد نتساءل : أيجوز لكل انسان أن يرفض مايدعى للقيام به من أعمال الدولة ؟ ونحن نجيب عن ذلك : أولا بأنه ينبغى أن يكون لكل فرد الحرية الشخصية الكاملة فى أن يقبل أو يرفض مايعرض عليه من الأعمال ، فليس فى جميع النظم الديمقراطية ماهو أسمى من الحرية الشخصية . غير أنه ينبغى ألا يكون القبول أو الرفض منبعثا عن نزوات شخصية ، أو هوى جامح أو كسل وتقاعد عن الخدمة العامة . فمن كان راجعا الى شىء من هذا فالأجدر به أن يجند للعمل الذى يدعى اليه .

أما اذا كان فى قبوله أو رفضه ملبيا لنداء ضميره ، خاضعا لسلطان عقيدته التى وصل اليها بعد تمحيص صادق نزيه ، فذلك حقه لا ينازع فيه .

●

لقد كان أبو حنيفة يخشى أن يسخر قضاؤه لخدمة السلطان ، فكان رفضه لذلك نقطة تحول فى تفكير كل من يتصدى لاقامة العدل بين الناس .

ومهما يكن الأمر فان أباحنيفة اذا كان قد تنحى عن مجلس القضاء ، فانه قد قدم للقضاء فى العالم الاسلامى التشريع الذى يأخذ به كل من جلس على كرسى القضاء .

رضى الله عن أبى حنيفة .

عمر بن عبد العزيز

فى طبيعة الانسان أن ينحدر وأن يرتفع ، أن يهبط عن المستوى الذى تسير فيه الحياة سيرا سليما رتيبا ، وأن يسمو فـــوق ذلك المستوى فيسمو بالحياة سموا يميزه عن سواه ممن حوله • ولقد يكون هذان الاتجاهان فى الفرد العادى ، ولقد يكونان فى الشخصية الخطيرة التى تتأثر بها الحياة وما فيها من عادات وتقاليد وتشريع ونظام للحكم •

وليس يعنينا أثر هذا الاتجاه الطبيعى فى الأفـــراد العـــاديين ، ولكننا سنتجه الى حقبة من تاريخ أسلافنا شهدت الحالتين تلك هى حقبة حكم الامويين • فمهما يكن رأى المؤرخين فى تلك الدولة فان الذى لا شك فيه هو أن بعض خلفائها جاوزوا الحد فى حكم الرعية ، و أن بعضهم ـ أو واحدا منهم على الاقل ـ قد سما بذلك الحكم سموا جعله منارة يستضاء بها • ذلك هو عمر بن عبد العزيز الذى سنقضى فى هذه الكلمة فترة وجيزة مع سيرته العطرة •

ولقد يخطر ببالنا أن أعمال حاكم كعمر بن عبد العزيز أعمال مثالية • تعز على الحكام ، ولا تتأتى الا للقليل القليل من ذوى النفوس الممتازة فى قوتها وانكار ذاتها • ولكن الله تعالى يبعث فى الحين بعد الحين بأمثال عمر ، ليكون لنا من مثله الاعلى قدوة نقتدى بها • بل نحن ان عجزنا عن تقليده فى كل ما يفعل فلا يضيرنا أن نقارن به ، فان المثل العليا عادة لا تحقق ولكن تقارب •

لقد حدثتكم فى هذه السلسلة عن عدل عمر بن الخطاب وصرامته فى الحق بما جعله مضرب الامثال ، كما حدثتكم عن سماحة أبى بكر فى قوتها التى ضمنت له طاعة أمته واعلاء كلمة الدين ، ولقد أجرؤ على أن أقول ان عمر بن عبد العزيز جمع بين صرامة ابن الخطاب ، وسماحة الصديق . وأظهر ما تظهر صرامته وتحرجه فى معاملته لنفسه ولاهله . وأجلى ما تتجلى سماحته ورحمته فى معاملة أمته من مسلمين وذميين ..

لقد كان لعمر عبد العزيز من قوة النفس ما أفاض عليه جميع فضائل الامام العادل . فهو لم يسع للملك والسلطان كما سعى اليه من قبله من الخلفاء الأمويين ، بل سعى اليه الملك والسلطان ولذلك شعر بقوته . وكان لذلك عفيفا زاهدا ، لم يتطلع لشئ مما يتطلع اليه الفاسدون من الحكام . وكان شديد الاتهام لنفسه كيلا تطغيه النعمة التى سعت اليه ، شديد الشعور بالمسئولية التى نيطت به . وقد بدأ حكمه بتجريد نفسه من جميع مظاهر الابهة والعظمة، ثم التفت الى عشيرته فجردهم من أموالهم . وبذلك كانت له سيطرة على عماله وولاته يحاسبهم على الدينار والدرهم ، لأنه لم يدعهم الى أمر هو عنه بنجوى . كان يستطيع أن يقول للمسىء أسأت ، ولكنه كان كذلك يقول للمحسن أحسنت .

وكان له من قوته ما يجعله يستنصح أهل الرأى ، لان القوى الخبير هو الذى يجد من نفسه الشجاعة ليستشير ، ولا يجد غضاضة فى قبول المشورة .

وأدرك من يوم ولايته للخلافة أنه خادم لامته لا أنها مسخرة لذاته ، فعكف على خدمتها بأدق ما فى هذه الكلمة من معان ، راعيا شئونها ، حريصا على أموالها ، منظما للخدمات العامة فيها .

وكان لعدله هذه السمة الرحيمة فحقن الدماء ، وحرم العقاب الا بعد الاخذ بالحسنى . وتناولت شفقته برعيته المسلمين وغير المسلمين، والمطيعين والعاصين ، بل شملت المساجين .

لما مات سليمان بن عبد الملك جاءوا بالعهد الذى كتبه لمن يتولى الخلافة من بعده ، ولم يكن قد فتح . واجتمع كبراء بنى أمية لمبايعة من سماه سليمان فى عهده . فلما انتهوا من قراءة العهد أجلسوا عمر ابن عبد العزيز على المنبر ، وهو يسترجع لما وقع فيه . فكان ذلك أول دليل على زهده فى الامارة . ولما تمت البيعة خرج من المسجد فرأى موكب الخلافة من براذين وخيل وبغال ، ولكل منها سائسها . فقال: ما هذا ؟ قالوا : موكب الخلافة . قال : دابتى أوفق لىّ ، وركب دابته، وصرف تلك الدواب لتكون فى خدمة المسلمين .

وبدأ أعماله برسالة أرسلها الى جميع عماله بالامصار يقول فيها : « أما بعد فان سليمان بن عبد الملك كان عبدا من عبيد الله ، أنعم الله عليه ثم قبضه واستخلفنى ... وان الذى ولانى الله من ذلك وقدر لى ليس على بهين ، ولو كانت رغبتى فى اتخاذ أزواج واعتقاد أموال كان فى الذى أعطانى من ذلك ما قد بلغ بى أفضل مبلغ بأحد من خلقه . وأنا أخاف فيما ابتليت به حسابا شديدا ، ومسألة غليظة ، الا ماعافى الله ورحم . »

هذا كان كلامه ، ولقد كان فعله مطابقا له ، فقد كانت آلت اليه ضيعة فدك عن طريق حكم بنى أمية ، فلما تولى الخلافة أحضر قريشا ووجوه القوم فقال لهم : ان فدكَ كانت بيد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فكان يضعها حيث أراه الله ، ثم ولها أبو بكر وعمر كذلك ، ثم أقطعها مروان ، ثم انها صارت الى ، ولم يكن من مالى ماهو أعظم خيرا منها لى . وانى أشهدكم انى قد رددتها على ما كانت عليه فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولما راجعه فى ذلك مولاه مزاحم،

قال له : ان أهلى أقطعوني ما لم يكن لى أن آخذ ، ولا لهم أن يعطونيه، وانى قد هممت برده على أربابه (وهم سكان الضيعة) • فقال له مزاحم : فكيف تصنع بولدك ؟ فجرت دموعه وقال : أكلهم الى الله • وذهب مزاحم إلى عبد الملك بن عمر ، فقال له ان أمير المؤمنين قد عزم على كذا وكذا ، وهذا أمر يضركم ، وقد نهيته عنه • فقال عبد الملك: بئس وزير الخليفة أنت ! ثم دخل على أبيه وقال : ان مزاحما أخبرنى بكذا وكذا ، فما رأيك ؟ فقال عمر : انى أردت أن أقوم به العشية ، فقال الابن البار ، الذى شابه أباه فما ظلم : عجله ، فما يؤمنك أن يحدث لك حدث ، أو يحدث بقلبك حدث ؟ فرفع عمر يديه وقال : الحمد لله الذى جعل من ذريتى من يعيننى على دينى • ثم قام من ساعته فى الناس فردها ، وأخذ من أهله ما بأيديهم وسمى ذلك رد المظالم •

وخطب فى أول عهده فقال : « من صحبنا فليصحبنا بخمس ، والا فلا يقربنا : يرفع الينا حاجة من لا يستطيع رفعها ، ويعيننا على الخير بجهده ، ويدلنا من الخير على ما نهتدى اليه ، ولا يغتابن أحدا ، ولا يعترض فيما لا يعنيه • » فانصرف عن بابه الشعراء وقالوا : هـذا رجل يعطى الفقراء ، ويحرم الشعراء • وثبت عنده الفقهاء والزهاد وقالوا : ما يسعنا أن نفارق هذا الرجل حتى يخالف قوله فعله •

ولقد بقى عمر على عهده متقشفا فى مأكله وملبسه ، ينفق كل يوم درهمين ، ولم يتزوج غير فاطمة بنت عبد الملك بن مروان •

ومن دلائل سماحته أنه نهى عن سب على بن أبى طالب على المنابر، وكان بنو أمية يفعلونه ، فتركه وكتب الى الامصار بتركه ، وأحـل محله العبارة التى ما زلنا نسمعها فى نهاية خطبة الجمعة وهى « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشـاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون • »

عاش عمر بن عبد العزيز فى رهبة من ربه ، وخوف من السلطة التى وضعها فى يده ، كأنما كان محكوما بها لا حاكما ، كتب مرة الى أحد أجناده فقال بعد أن أوصاه وصية طويلة : « واياك أن تفخر بطولك ، وأن تعجب بنفسك .. فانى أعظك بهذا ، وانى لكثير الاسراف على نفسى ، غير محكم لكثير من أمرى . ولو أن المرء لا يعظ أخاه حتى يحكم نفسه، ويعمل فى الذى خلق له من عبادة ربه عز وجل ، اذن لتواكل الناس الخير ، واذن لرفع الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، واذن لاستحلت المحارم ، وقل الواعظون ، والساعون لله عز وجل بالنصيحة فى الارض . »

وضع هذا الرجل المثالى نفسه تحت رقابة شديدة من ضمير حى مرهف ، ووضع عماله على البلاد تحت رقابة شديدة منه ومن الناس أنفسهم . فقد كتب مرة الى أهل الموسم فى الحج : « أما بعد فانى أشهد الله ، وأبرأ اليه فى الشهر الحرام ، والبلد الحرام ، ويوم الحج الاكبر ، انى برىء من ظلم من ظلمكم ، وعدوان من اعتدى عليكم ، أن أكون أمرت بذلك أو رضيت أو تعمدته ، الا أن يكون وهما منى، وأمرا خفى على لم أتعمده ، وأرجو أن يكون ذلك موضوعا عنى ، مغفورا لى ... وأنا معول كل مظلوم . ألا وأى عامل من عمالى رغب عن الحق ، ولم يعمل بالكتاب والسنة فلا طاعة له عليكم ، وقد صيرت أمره اليكم ، حتى يراجع الحق وهو ذميم ... ألا وأيما وارد ورد فى أمر يصلح الله به خاصة أو عامة فله ما بين مائة دينار الى ثلثمائة دينار ، على قدر ما نوى من الحسبة ، وتجشم من المشقة . »

هذا الرجل الذى يسخو هذا السخاء على من يتسبب فى أى أمر فيه مصلحة خاصة أو عامة يضن بأى قدر من الاسراف . فقد كتب اليه حجبة الكعبة أن يأمر بكسوة البيت الحرام ، كما كان يفعل من كان قبله . فكتب اليهم : « انى رأيت أن أجعل ذلك فى أكباد جائعة ، فانه أولى بذلك من البيت .»

وهذا الرجل الذى يأمر عامله على سمرقند أن « أعمل خانات فى بلادك ، فمن مر بك من المسلمين فاقروهم (أى آستضيفوهم) يوماً وليلة ، وتعهدوا دوابهم ، فمن كانت به علة فاقروه يومين وليلتين ، فان كان منقطعا به فقووه بما يصل به الى بلد » ـ هو نفسه الـــذى يرفض أن يستمر عماله فى صرف ثمن الشمع الذى كانوا يستضيئون به حين يخرجون الى صلاة العشاء وصلاة الفجر ، فيكتب الى أبى بكر بن حزم ، عامله على المدنية : « قد عهدتك وأنت تخرج من بيتك فى الليلة المظلمة الماطرة الوحلة بغير سراج ٠ ولعمرى لانت يومئذ خير منك اليوم ، والسلام ٠»

وهذا الرجل الذى يأمر والى حمص أن ينظر الى القوم الذين نصبوا أنفسهم للفقه وحبسوها فى المسجد عن طلب الدنيـا ، فيعطى كل رجل منهم مائة دينار من بيت المال يستعينون بها على ما هم عليه ـ هو نفسه الذى يصله كتاب من وهب ابن منبه ، عامله على بيت مال اليمن قائلا : « انى فقدت من بيت مال المسلمين ديناراً ٠» فيكتب اليه: « انى لا أتهم دينك ولا أمانتك ، ولكن أتهم تضييعك وتفريطك ، وأنا حجيج المسلمين فى أموالهم ، ولاخسهم عليك أن تحلف ، والسلام ٠ »

وهذا الرجل الذى يستنجز مصالح الشعب فيكتب الى عدى بن أرطاة ، والى البصرة : « واعلم ان أحدا لا يستطيع انفاذ قضايا ما بين الناس حتى لا يبقى منها شىء ، لابد أن تستأخر قضايا ليـــوم الحساب » ـ هو نفسه الذى يتحرج فى اعادة بناء مسجد لاخـوال الرسول عليه الصلاة والسلام ، خشية أن ينفق فيه ما المسلمون أحق به ، فيكتب الى أبى بكر بن حزم ، عامله على المـــدينة : « وجاءنى كتابك تذكر أن بنى عدى بن البحار ، أخوال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ انهدم مسجدهم ٠ وقدكنت أحب أن أخرج من الدنيا لم أضع حجرا على حجر ، ولا لبنة على لبنة ، فاذا أتاك كتابى هـذا فابنه لهم بلبن بناء قصدا ٠ ».

كان عمر يقبل النصح ويعمل به ، فقد كتب اليه غيلان الدمشقي يقول فيما قال : « ... طفىء أمر السنة ، وظهرت البدعة ، أخيف العالم فلا يتكلم ، ولا يعطى الجاهل فيسأل . وربما نجت الامة بالامام ، وربما هلكت بالامام ، فأنظر أى الامامين أنت ... » فدعاه عمر وقال له : أعنى على ما أنا فيه . فقال غيلان : ولنى بيع الخزائن ، ورد المظالم . فولاه ذلك ، فكان يبيعها وينادى عليها قائلا : « تعالوا الى متاع الخونة ! تعالوا الى متاع الظلمة ؟ تعالوا الى متاع من خلف الرسول فى أمته ، بغير سنته وسيرته . » .

هناك عبارة أقولها دائما لتلاميذى ، وهى أننى أتمنى اليوم الذى أصبح فيه غير ذى فائدة لهم . أقصد بذلك وصولهم فى العلم الى درجة تغنيهم عنى . واذا كان هذا هو مثلى الاعلى للاستاذ الجامعى ، فاليكم المثل الاعلى لعمر بن عبد العزيز : فقد كتب اليه أحد عماله يقول : « ان الناس قد كثروا فى الاسلام ، وخفت أن يقل الخراج. » فكتب اليه عمر : « فهمت كتابك . والله لوددت أن الناس كلهم أسلموا حتى نكون أنا وأنت حراثين نأكل من كسب أيدينا . » .

الكندي

الخيام

عمر بن الفارض

بقلم:
محمد عبد الهادي أبو ريدة

أبو يوسف الكندى

فى بلاد الشرق ، حيث الطبيعة الهادئة الواضحة المعالم المنتظمة فى أحوالها ودورات حوادثها ، نشأت الحضارات الانسانية الأولى ، فى الناحية الروحية الدينية وناحية تنظيم الحياة الاجتماعية والسياسية للأمم والدول ، وناحية العلوم والفنون ، وكانت لهذه الحضارات الخالدة مثل حضارة المصريين القدماء والحضارة البابلية قيمتها الكبيرة .

ومنذ أواخر العصر القديم ظهرت الحضارة اليونانية والرومانية وعلى أثرها الحضارة العربية الاسلامية ، وأخيرا جاءت الحضارة الغربية فى أوروبا وأمريكا . وكلما انتشرت الحضارة فى بلاد مختلفة وبين أمم متنوعة ، كانت ذات طابع عالمى ، وبرغم ماوصلت اليه الحضارة الغربية فى القرون الحديثة من رقي باهر أمام الرائى ، فلا يزال للشرق فى العصر القديم والمتوسط من تاريخ الانسان فضله فى وضع أسس الحضارة المعنوية ، التى هى الناحية الجوهرية بالنسبة للانسان ، وللحضارة ناحيتان : ناحية الأفكار والقيم الكبرى التى توجه الحياة ، وناحية المجهود الفردى الذى يبذله رجال يتتابعون فى الأجيال ، فيشكلون الحياة ويوجهون الفكر كما يفعل الفنان المبدع ولا يكون تأثيرهم مقصورا على أمتهم ، بل هو بفضل صبغته الانسانية يمتد الى ما وراء حدود بلادهم ، وبذلك يدخلون فى تاريخ الانسانية . وهذا هو معنى أن يكون المفكر « عالميا » ، وكما يكون المفكر العالمى تلميذا لأجيال سابقة فهو يكون أستاذا لأجيال لاحقة ، وزعماء الفكر كأنما يحدث بعضهم بعضهم من وراء القرون ، ويعهد بعضهم لبعض بمهمة قيادة الحياة وتعهد الفكر .

ونريد أن نتحدث عن دور الشرق في بنـــاء الحضارة المعنوية من ناحيـــة الجهـــود الفـــردية التى بذلهـــا أســـاتذة الشـــرق ٠ فاذا كان في الغرب أرسطو وأفلاطون والقديس توما وديكارت وغيرهم ففي الشرق الكندى وابن سينا وابن الهيثم والغزالى وغيرهم ٠ وكلهم يقفون كالجبال الشامخة فى التاريخ الفكرى ٠ ومن المعلوم أنه كلما كان للمفكر فضل السبق والتمهيد واضافة شيء حاســم الى تراث الفكر فى أمته والى تراث الفكر الانسانى بوجه عام ، كان فضـــله أكبر ، وكان في حياته وتطورها وآرائه وتأثيرها ما يستحق أن تعيه ذاكرة الأجيال وأن يوضع أمام أهل الذكاء المتوثبين لخدمة الفـــكر والحياة ، وحديثنا اليوم عن أبى يوسف يعقوب بن اسحاق الكندى ويحيط بالكندى من الطرافة أنه أول فيلسوف وعالم فى دائرة الحضارة العربية الاسلامية ، وأنه عربى صميم ، واذا كانت جزيرة العرب قد أنجبت مالا يحصى من الشعراء والأبطال من الطراز الانسانى العالى فانها لم تكن بلاد الفلاسفة ، ولكن نبوغ الكندى في فهـم الفلســفة وبيانها للناس ، بيانا فيه من السعة بمقدار ما فيه من الروعة يدل على أن أولئـــك القوم من أبناء الصحراء الذين جاءوا فى الشعر بالأفكار الجميلة وكانوا من مبدعى المعانى الرائعة والتصورات الرفيعة ، وكان يخلب لبهم الجميـــل من ذلك ، كان عندهم أيضا استعداد عال لفهم الفلسفة وتكوين مذاهب فيها وللوقوف في ميدان الفـــكر الى جانب أعلامه الكبار ٠ ومهما كان من اشتغال بعض أفراد العرب قبل الكندي بالحكمة وعلومها ، كالذى يحـكى عن الأمير الأموى خالد بن يزيد بن معاوية في القرن الأول للهجرة ، ومهما كان من تفـكير فلسفى كلامى عند المعتزلة ومن جهـود النقلة والمترجمين لعلوم الحكمة في العصر الـــذى عاش فيه الكندى بين منتصف القرن الثانى ومنتصف القرن الثالث للهجرة ، مهما كان من ذلك كله فان الكندى يقف بين أهل عصره كالطود العظيم ، حين انفتحت على المفكرين العـــرب وغير

العرب في الدولة الاسلامية كل كنوز الفلسفات والعلوم والفنون عند الأمم السابقة ·

كان الكندى من سلالة أمراء كندة ، وكان أبوه أميرا على الكوفة للمهدى والرشيد ، وقد عاش هو بين البصرة والكوفة وبغداد ، ولاشك أن مجده الطارف والتليد قد أتاح له أن يأخذ من الثقافة بأوفر نصيب ، ومن العجيب أنه مال الى العلم والفلسفة ، كأنما أراد أن يضم الى شرف المحتد والجاه شرف العقل ، فأقبل على التبحر في العلوم كلها وفي فنون الحكمة اليونانية والهندية والفارسية ، عاكفا على قراءة مايظهر من كتب الحكمة ، مثقفا نفسه بنفسه ، ومدونا ثمرة تبحره ، فلم يترك ناحية من نواحي الأبحاث العلمية والفلسفية والانسانية الا ألف فيها ·

وأهم ما في ذلك أنه وعى كل العلم الذى انتهى اليه وقدمه للعرب وأنه أورث الانسانية معرفة بفلسفات وعلوم باد أهلها وبادت مراجعها ، وكان شاعرا تمام الشعور بقداسة الحقيقة وبالنسب الذى يربط بين أهلها ، وبأنها مهمة ملقاة على كاهل المفكر الذى يجب عليه أن يعرف آراء السابقين ويبينها للناس ويصلح بعض ما قالوا أو يكمله ، مع مراعاة حاجة المثقفين ومقتضيات التقدم · وقد عرف له الخلفاء قدره ، فاختاره المعتصم مؤدبا لابنه أحمد ، وألف بعض كتبه باسم المعتصم وابنه ، الى جانب ما ألفه باسم أصدقائه أو تلاميذه ، في روح تفيض بالمحبة للعلم وطالبيه وبالرغبة في اطلاعهم على غايات الحقائق وأعماق المذاهب ·

ولم يسلم الكندى ، بحكم أنه طليعة فلاسفة الاسلام ، وأنه يعرض على الناس أفكارا ومذاهب في الكون وما فيه ، غريبة عنهم ، من أن يكون له أعداء ، فكان هناك الجامدون المتزمتون الذين يمقتون كل جديد ، وكان هناك المتجرون بالدين الذين يدعون حمايته ، وهم في

الحقيقة ، كما يقول الكندى عنهم ، غرباء عن الحق وعن الدين ، ولا يريدون من محاربة الفلسفة الا التظاهر بالدين والمحافظة على كراسيهم التى تدر عليهم خيرات الدنيا ، وكان هناك المنافسون والحاسدون . وقد استطاع الكندى ، بفضل اخلاصه للحق ، أن يدافع عن نفسه فى عبارات مؤثرة ، وأن يدافع عن العلوم التى كان يقدمها للناس دفاعا موفقا ، وذلك بأن أثبت أن الفلسفة مادامت هى العلم بحقائق الأشياء من أمور الربوبية والوحدانية والفضيلة فانها لا يمكن أن تعارض الدين ، وأن الدين نفسه يمكن أن يفهم بالمقاييس العقلية عند « ذوى الدين والألباب » . هذا مع ايمان صادق مستنير وحرص على الحقيقة وقبولها من حيث أتت ، شعاره ألا يستحى من قبول الحق ، ولو جاء من المخالفين ، لأن فى قبول الحق والعمل به كمال الانسان ولأنه ، كما يقول : « لا شىء أولى بطالب الحق من الحق » .

ومن طرائف مايحكى عن الكندى أن أحد معاصريه كان يكيد له لاشتغاله بالفلسفة ويغرى به العامة ، فلم يجد الكندى حيلة فى رد كيده سوى أن يدس عليه من تلطف له حتى جعله يطلع على بعض علوم الفلسفة ، فأعجبته واشتغل بها ، وانقطع بذلك شره عن الكندى ، وهكذا انتهى عدو الكندى بأن صار تلميذا له . وهو أبو معشر الرياضى والمنطقى والحاسب المشهور الذى يرجع له الفضل فى ضبط الكثير من تواريخ الحوادث والأشخاص فى الدول القديمة والدولة الاسلامية والذى عرفت مؤلفاته العلمية والمنطقية فى أوروبا وترجمت الى اللغة اللاتينية .

ودام مجد الكندى ودامت مكانته فى عهد الخلفاء المستنيرين ، حتى اذا عادت روح الجماد أيام المتوكل ، وجد خصومه من أعداء الثقافة الرفيعة الممتازة مجال الكيد له ، فأفسدوا مابينه وبين المتوكل ، وعملوا على اسقاط جاهه ومكانته ، واستولوا على ماكان قد جمع من

كتب ، فنقلوها للبصرة وجعلوها مكتبة كبيرة تسمى « الكندية » الى أن انكشفت الدسيسة ووقع الدساسون فى الحفرة التى حفروها ، ولم ينقذهم الا أن ردوا للكندى كتبه كلها ، ولكنه قضى حياته بعيدا عن دوائر الخلافة ، فى وحدة الفلسفة وعزلتها ، يتعزى بالاشتغال بالبحث والتأليف ، ويتعزز بخيرات العقل الباقية • وأغلب الظن أن رسالته الجميلة فى بيان الحيلة للتغلب على الأحزان وفى بيان السيرة الفلسفية ترجع الى هذه الفترة من حياته ، ومن الأبيات الجميلة فى قصيدة له هذه الأبيات :

فــان الغنى فى قلــوب الرجـال وانّ التعــزز بالأنفس

وكائن ترى من أخى عسرة غنى وذى ثـروة مفـلس

ومــن قائم شــخصه ميت على أنه بعـــد لم يرمس

فان تطعم النفس ماتشتهى تقيك جميع الذى تحتسى

واذا كانت فلسفة الكندى شـاملة للنواحى العقليـة النـظرية ، والعلمية الطبيعية ، والانسانية الخلقية ، بأوسع المعانى ، فان موضع الاعجاب والاعتبار فى حياة هذا الفيلسوف وفى ثمرة عمله وجهـده أنه عرض الفلسفة ، خصوصا اليونانية ، فى صورة واضحة ، وفيما يقرب من مائتى وخمسين مصنفا ، مابين كتاب مطول ورسالة قصيرة ، فكان بذلك معلم العرب ، وانه أيضا كان مفكرا ناقدا لمـا يقرأ مهذبا مصححا له ، بحسب الأصول السليمة التى وجد أنها تتفق مع العقل السليم ومع الأصول الدينية الصحيحة ، بحيث نجـد عنده فلســفة عربية اسلامية بالمعنى الحقيقى لكلمة « فلسفة » ، لأنه لم يحد عن منهج الفلاسفة قبله ولا عن أصولهم الصحيحة ، ولكلمة «عربية» لأنها بلغــة عربيــة وأسلوب له جلالة التعبير الشعرى المأثور عن العرب ولأنها تتفق مع طبيعة الفطرة العربية الواضحة التى لم يـكن المأثور

الفلسفى قد قيدها فى تفكيرها ولا أحاط المسائل أمامها بما يسمى « الضباب الفلسفى » ، ولكلمة « اسلامية » ، لأنها لم تبعد عن أصول العقيدة الاسلامية ، بل تصورتها تصورا فلسفيا صافيا ، بحيث تتبقى الأصول الفلسفية والدينية عنده فى انسجام جميل بحيث يجد عنده فكرة كاملة عن الوجود وتصورا علميا للكون باعتباره آية جميلة متقنة الصنع تدل على موحدها ونجد فى فلسفته سلامة الأساس الفكرى واستقامة المنهج وصحة النتائج ، على نحو غير مألوف قبل الكندى ولا بعده ، بعيد عن الخلط والتكلف فى التوفيق بين المتناقضات كالذى نجده عند فلاسفة الاسلام بعد الكندى من الأعاجم ، وأنه أخيرا مثل لنا السيرة الفلسفية كما ينبغى أن تكون ، من توفر على البحث وتفرغ للعلم وعمل على نشره ومن تمسك بالخيرات العقلية والاستغناء بذات العقل والروح عن الجرى وراء حطام الدنيا .

واذا كان الكندى أستاذا من أساتذة الشرق فقد كان أستاذا من أساتذة الغرب أيضا ، فقد ترجم كثير من كتبه فى الفلسفة النظرية وفى علم النفس وفى علوم الطبيعة الى اللاتينية أكثر من مرة ، منذ أول عهد أوروبا بمعرفة علوم العرب فى أسبانيا ، وكان لكتبه تأثير فى الثقافة الأوربية فى العصور الوسطى وفى آراء مفكرين معروفين ، وقد عرف له المؤرخون الأوربيون قدره فنجد كاردانوس أحد مفكرى ومؤرخى عصر النهضة فى ايطاليا يشيد بعبقرية الكندى ويضعه بين اثنى عشر من المفكرين العالميين الذين نبغوا كل واحد منهم فى ناحية .

ولا نزال آراؤه موضع بحث المشتغلين بتاريخ العلوم فى أوربا حتى اليوم .. ولكن الكندى لم يسلم فى أوروبا أيضا من الخصوم ، فقد وضعه أعداء الفلسفة هناك هو وفلاسفة الاسلام الى جانب فلاسفة اليونان وحاربوهم باسم الدين ، وان كان ما يؤخذ على الكندى لا يعارض الدين بل يتفق مع العقل والعلم ..

كان الكندى فيلسوفا وعالما ، وكان أيضاً حكيما ، ومن كلماته التي لا تخلو من دلالة على روحه وطريقته فى الحياة قوله : اعتزل الشر فان الشر للشرير خلق ، ومن لم ينبسط لحديثك فارفع عنه مؤونة الاستماع منك • اعص الهوى وأطع من شئت • لا تطلب الحاجة الى كذوب ، فانه يبعدها وهى قريبة ، ولا الى جاهل ، فانه يجعل حاجتك وقاية لحاجته • لا تنج مما تكره حتى تمتنع عن كثير مما تحب •

العاقل يظن أن فوق علمه علما ، فهو أبدا يتواضع لتلك الزيادة ، والجاهل يظن أنه قد تناهى ، فتمقته النفوس لذلك • من لم يكن حكيما لم يزل سقيما •

هذه أيها السادة لمحة قصيرة من حياة مفكر كان أستاذا من أساتذة الشرق والغرب الذين ساهموا فى بناء صرح الفكر الانسانى وهو الذى يقول : « يحتاج طالب العلم الى ستة أشياء حتى يكون فيلسوفا ، فان نقصت لم يكمل : ذهن بارع ، وعشق لازم ، وصبر جميل ، وروع خال ، وفاتح مفهم ، ومدة طويلة •

عمر الخيام

ميدان الانتاج الانسانى واسع ، لا تكاد تحده حدود ، فهناك ثمرات العقل النظرى الذى يبحث عن الحقائق ويعبر عنها فى العلم والفلسفة ، وهناك ثمرات الخيال الصافى والعاطفة الفياضة كما تتجلى فى الأدب ، وهناك ما للاحساس بالجمال من ثمرات تتجلى فى روائع الابداع الفنى . غير أن ثم ضروبا من التفكير الانسانى ليست فلسفة نظرية ولا علما خالصا ، ولا هى أدب صرف ، وانما هى مزيج جميل من الفلسفة والأدب والفن ، هى أفكار توحى بها للانسان معاناته للحياة ، ويبعثها فى نفسه ادراكه لطبيعته الخاصة ولقيمته فى هذه الحياة ، وتنبهه لآلامه وآماله ، فتصور له من طبيعته أعماقا قد لا يفطن لها لأول وهلة ، وتطلعه على ما يربطه بحياته وبما فوقها ، وتبعث فى نفسه أسئلة كبرى خالدة . وفى هذا الميدان تلتقى النفوس الآدمية جميعا ، فتتحطم الحواجز التى تقوم بينها وتتقدم فى ادراك معنى الانسانية .

وحديثنا الليلة عن مفكر انسانى من طراز نادر عجيب ، شاء أو شاءت له الأقدار أن يكون كذلك . واذا ذكر اسم الخيام كان أول ما يخطر بالبال هو ذلك الشاعر الفارسى الذى عبر فى شعره عن احساس بالحياة والرغبة فى متاعها الفانى ، كما عبر عن شك واسراف وعن توبة وانابة . والحقيقة أن شهرة الخيام كشاعر طغت على شهرته كفيلسوف وعالم . وما ذلك الا لأن بعض ثمرات التفكير الانسانى تجىء معبرة عما يخالج الكثير من النفوس

تقع حيـاة الخيـام ، أو « حكيم نيسابور » ، كما يسمى — فى القرنين الخامس والسادس للهجرة • وكان القرن الخامس فى ايران يموج بمختلف التيارات الفكرية المتعارضة • فهو عصر القشيرى والجوينى والغزالى من أئمة علوم الشرع ، وعصر الوزير نظـام الملك من أئمة السياسة والاصلاح ، وعصر الحسن الصباح وجمـاعات الباطنيـة والاباحية وأمثالهم من أهل الفساد ، وعصر تلاميـذ ابن سينا فى الفلسفة ، وهو أيضا عصر عمر الخيام الذى يقف الى جانب أكبر الشخصيات •

ونحن لا نكاد نعرف عن حياته الخاصة شيئا ، وأغلب الظن أنه كان من أسرة مغمورة ، ولا يخلو اسمه من دلالة على أصـل أسرته وصناعتها ، وان كان البعض يزعم أن تسميته الخيـام هى تسميته كشاعر • ولكن الخيام وجد من يرعاه حتى تعلم ونبـغ ، فعـرف نظام الملك ، بل يقال انه كان زميلا له فى الدراسة •

وقد استعان الوزير المصلح بسعة معارف الخيام فى علم الفـلك فكلفه هو وغيره من أعيان المنجمين باصلاح التقويم للسلطان ملكشاه السلجوقى • وكـان علم الخيام سببا فى أن عرفه الملوك واستعانوا بعلمـه وأولوه من التعظيم مالا يـكون الا للعلماء • وقد التقى الخيام أيضـا بالامـام أبى حامد الغزالى ، فناظره الغزالى فى مسـائل من الفلسفة • ويرى أكثر من باحث أن بعض آراء الغزالى فى نقد الفلسفة والفلاسفة موجه للخيام ، وأن بعض رباعيات الخيام موجه للغزالى •

واذن لم يكن الخيام شاعرا فحسب ، بل كان فيلسوفا ، وهـو يعتبر من أكبر ممثـلى العلم اليونانى وخليفة ابن سينا فى فنـون الحـكمة ، كما يعد فلكيا ذائع الصيت ، ورياضيا يشهد له مؤرخو العلم الأوربيون بأنه من أعظم علماء الرياضة فى العصور الوسطى • وقد نشر كتابه « فى علم الجبر والمقابلة » فى أوروبا منذ أكثر من قرن

كما نشرت هناك بعض رسائله الفلسفية ، ولايزال بعض كتبه في الهندسة والطبيعة وغيرهما محفوظا في نسخته الخطية في دور الكتب بأوربا .

ولكن شخصية الخيام قد أحاط بها من الحكايات ما أحاط بعظماء المفكرين . من ذلك مايحكى من أمر الميثاق الذى كان بينه وبين الحسن الصباح ونظام الملك ، وهم ما يزالون في المكتب ، بأن من صار منهم ذا شأن يأخذ بناصر صاحبيه ، فأسعد نظام الملك حظه فصار وزيرا مصلحا ، وغلبت على الصباح شقاوته فصار سفاكا قاسيا ، وقدر للخيام أن يعيش عالما سعيدا بالحياة الهادئة المتواضعة !

أما الأهم من ذلك كله فهو هذه الرباعيات التى تنسب للخيام والتى جعلته معروفا فى العالم كله ، وجعلت له مكانا كبيرا فى الفكر الانسانى . ونسبة هذه الرباعيات للخيام مثار مشكلة تاريخية لم يصل العلماء بعد الى حلها . فبعض المؤرخين الأولين لا يعرفون من أمر الخيام الا أنه كان فيلسوفا وعالما ، وهم لايذكرون له شعرا فضلا عن الرباعيات بما فيها .

ويدل كلامه فى كتبه على ايمان بأصول الدين ، يقوم على العلم والبرهان .

بل يروى من أخبار وفاته مايدل على الايمان ، فقد حضرته الوفاة وهو يتأمل كتاب الشفاء لابن سينا ، فدعا الأوصياء وكتب وصيته وقام وصلى ولم يأكل ولم يشرب . حتى اذا صلى العشاء الآخرة سجد وكان يقول فى سجوده : اللهم تعلم أنى عرفتك على مبلغ امكانى ، فاغفر لى ، فان معرفتى اياك وسيلتى اليك » ثم أسلم روحه .

ولكن بعد أن توفى الخيام بأكثر من قرن بدأ بعض العلماء يتهمه بمخالفة الشرع ، فمنهم من يشير الى رباعيات له فى التصوف ، وقف عليها بعض الصوفية فنقلوها الى طريقتهم وتحاضروا بها فى مجالسهم ولكن باطنها مضاد للشرع • ومنهم من يذكر له رباعيات تنزع الى الشك والاباحة • ثم أخذت تظهر مجموعات من الرباعيات منسوبة له ولم يزل حجمها يتضخم حتى بلغت عددا كبيرا ، ومعظمها متشابه فى الفكرة والموضوع ، وقد لا يخفف من ثقل مايشوبها من تكرار الا تنوع صورة التعبير فيها تنوعا بارعا متجدد الطرافة • والا عمق الفكرة ونفاذها وضربها على أوتار حساسة فى النفس البشرية ، وتناولها أشياء فى غاية التناقض ، من رباعيات تنحو بحو الشك والدعوة الى اللذة وأخرى تنحو نحو الايمان والحب الالهى وتنزع منزع الزهد والتصوف •

ونظرا لأن الخيام كان فيلسوفا عالما وأنه لم يقم دليل قاطع على أن هذه الرباعيات من شعره حقيقة ، ولا دليل قاطع على براءته منها ، فان الباحثين قد اختلفوا فى أمرها ـ كالمستشرق الألمانى شنيدر ، من لا يرى فى الخيام الا أنه عالم فيلسوف فحسب ، وينكر نسبة الرباعيات اليه انكارا تاما ويعتبرها لخيام أسطورى اعتبر رمزا للالحاد والمادية ، ومنهممن ينسباليه الرباعيات الصوفية ويعتبر غيرها منحولا باسمه ، ومنهم من يؤول الرباعيات التى تتحدث عن الخمر والحب على أنهما رمز للفكر الحر أو للهيام فى محبة الله ، كما فعل المستشرق الفرنسى نيقولا ، ولكننا اذا صرفنا النظر عن المجموعات الكبيرة للرباعيات وشكنا فى نسبتها للخيام فان فى كتب العلماء رباعيات منها منسوبة اليه على كل حال • ولا عجب أن تكون للخيام رباعيات ، لأن الرباعيات كانت نوعا أدبيا معروفا فى عصره وقبل عصره ، وقد اصطنعه الفلاسفة والصوفية وكثيرون ممن تكلموا فى الحكمة الدينية والدنيوية ، ويؤخذ من كلام المؤرخين عن الخيام مايدل

على أنه كان ضيق الروح ضنينا بحكمته حاد المزاج ، وهذا من علامات التشاؤم . وكانت روح العصر كله روح انحلال روحي وخلقي ، حتى لقد صارت النزعة الاباحية فلسفة انتحلها المفسدون وروجوا لها بأدلة خادعة وشبه باطلة .

مهما يكن من شيء فان قيمة الرباعيات تنحصر في أنها تعبر عن أحوال ونزعات انسانية . ولا يصح أن يستلفت نظر الانسان فيها مايجده من دعوة الى المتاع قبل انتهاء هذه الحياة الفانية بقدر مايجب أن يستلفت نظره مافيها من صراع نفسي ، من شعور بالحياة في مشكلتها الكبرى وسرها العميق ، وما فيها من نزعات التصوف والمحبة لله . وهي اذا كانت تعبر عن روح الشك في الحقائق فان هذا تنبيه على غرور المخدوعين الذين يزعمون أنهم بلغوا الى معرفة الحقيقة مع بعدهم عنها ، واذا كان فيها دعوة للمتاع واعتراف بالذنب فذلك لا يخلو من تشنيع على أهل الرياء والنفاق الذين يتظاهرون بالفضيلة وتعظيم الشرع ، وهم يفعلون غير مايقولون ، واذا وجدنا فيها تعبيرا عن الحيرة أمام سر الحياة ومجرى الأقدار ، ففي ذلك اشارة الى من يدعون معرفة ذلك السر المكنون .

فنحن اذا وجدنا رباعية تدعو الى القيام في السحر والمبادرة للشراب فاننا نجد رباعية كهذه : « يا رب لو كانت ذنوبي ملء الأرض فاني آمل أن تأخذ بيدي ، لقد قلت انك آخذ بيدي يوم العجز ، فلن أكون أعجز مني اليوم ، فخذ بيدي الآن ؟ » أو كهذه الرباعية « رب نجني من الحساب في القليل والكثير ! ونجني من شر نفسي لأشتغل بك . ومادام عقلي معي فاني أعرف الخير والشر فأسكرني بحبك حتى أتخلص من الخير والشر ! » وغير ذلك من الرباعيات التي تتحدث عن المحبة الالهية وعن أنها السبيل الوحيد للنجاة .

لقد اشتهر الخيام فى الشرق بأنه شاعر ماجن ، وغفل الشرق عن الخيام العالم الفيلسوف • أما فى الغرب فقد عرف الخيام فيلسوفا وشاعرا فى وقت واحد • وقد وجد من الباحثين من يقدر له جهوده فى العلم والحكمة ومن الشعراء والمفكرين من أعجب بآرائه من حيث موضوعها ومن حيث صورتها الفنية • ولقد مكن للخيام فى نفوس الأوربيين أن كل رباعية تعبر عن فكرة كاملة فى صورة قصيرة ساحرة من الناحية الفنية ومن منا يقرأ رباعية كهذه ثم لا يعجب بها ؟

« يقال ان الحجر بفضل الصبر ، وهو مطمور فى أعماق الأرض ، يستطيع أن يتحول الى زمرد ـ نعم هو يستطيع ذلك ، لكنه يستطيعه بدم قلبه »

وقد توفر على دراسة الخيام كثيرون من الباحثين الأوربيين فى حماس شديد ، وكان أول من تنبه اليه وترجم شيئا من رباعياته هم المستشرقون الألمان منذ ١٨٢٧ ، ثم طار اسمه فى أوروبا وأمريكا منذ حوالى قرن بعد أن ترجم الشاعر الانجليزى فيتزجيرالد بعض رباعياته التى تدعو الى متاع الدنيا شعرا انجليزيا • ثم كثرت الترجمات لرباعياته الى كل اللغات ، وأخذ الخيام مكانه فى الأدب العالمى •• ومن المستشرقين مثل فريدرنج فون روزن من ترجم الرباعيات شعرا ألمانيا ساحرا احتفظ فيه بنظام القافية فى الألمانية كما هى فى الفارسية وبوب الرباعيات بحسب الموضوعات التى تتناولها •

والذى خلب لب الأوروبيين فى الرباعيات صدقها فى تصوير موقف الآدمى فى هذه الحياة وتصوير الصراع بين شوق الانسان الى الدنيا وبين شوقه الى ما بعدها ، وخوفه من الله مع أمله الوطيد فى سعة رحمته ، وبيان مأساة الحياة الانسانية وغموض سرها الذى

ينتهى العمر من غير أن يعرف الانسان منه شيئا ، وتصوير هذه الحيرة التى تساور الانسان أمام تصرفات الأقدار ·

وإذا كان الباحثون الأوربيون يشيدون بفضل الخيام فى الفلسفة والعلم فهم يعجبون خصوصا بعبقريته الشعرية ، وطرافة تفكيره · وقد بلغ من تحمسهم له أن تأسست فى لندن جمعية اتخذت لها ناديا أسمته نادى عمر الخيام ، ومن المعجبين به من زار قبره فى نيسابور ·

وفى سنة ١٨٩٣ ذهب أحد أعضاء هذه الجمعية الى نيسابور ، وجاء ببذور من الورد النابت عند مقبرة الخيام ، ثم استنبتت هذه البذور ، فأنبتت وردا أحمر ، وضعته الجمعية على قبر الشاعر الانجليزى فيتز جرالد الذى نقل الى الانجليزية شعر الخيام ·

وليس من شك فى أن الخيام كان انسانا حساسا ، ومفكرا طريفا يحار الانسان فى الحكم عليه ، فكثير من الرباعيات التى تنسب له ، يحتمل التأويل على أكثر من وجه ، ومن الباحثين الأوربيين من يعتبره رمز الروحانية ، وشاعر الحب الالهى ، ومنهم من يرى فيه رمز المادية وشاعر الفسق والمجون ·

لكن فى رباعية للخيام هذا البيت :

كل يريد أن يجعلنى على مذهبه ، ولا حق له فى ذلك ، لأن لى مذهبى » ·

وإذا كان الخيام هو ذلك الشاعر الشاك المتحير ، المسرف على نفسه فلا عجب أن يتحير المفكر ، ولكن العجب أن يظن أنه قد استقر فى مهاد اليقين مع أنه متمكن في عالم الأوهام ، ولا عجب أن يسرف الانسان الضعيف على نفسه بل العجب أن يصر على اسرافه ، لكن

الخيام كما تصور الرباعيات كان انسانا بالمعنى الصحيح فكر فشك ثم آمن وأناب . وما أجمل قول الله تعالى :

« قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، ان الله يغفر الذنوب جميعا ، انه هو الغفور الرحيم » .

عمر بن الفارض

حديثنا هذا عن شخصية شائقة لا يكاد يجهلها أحد فى العالم الاسلامى ، وهـذه الشهرة لا ترجع تبريز صاحبها فى ميدان العلوم النظرية ولا فى ميدان العمل الدنيوى الذى تبقى آثاره على الأجيال بل هى ترجع الى أنه عبر أجمل تعبير وأعمقه عن أسمى عاطفة يجيش بها القلب الآدمى ، وهى محبة الله ، الذى خلق القلوب وألهمها المحبة وبعث فيها محبته هو ، واذا كان فى فطرة كل نفس رقيقة أن تدرك الكمال والجمال وتتعشقهما وتفصح عن ذلك بما فى طاقتها من وسائل التعبير فان مافاض به قلب ابن الفارض خليق بأن تهتز له جميع القلوب ، والواقع أنه لا يكاد يوجـد مثقف فى الشرق الا ويحفظ شيئا من شعر ابن الفارض ، هذا اذا صرفنا النظر عن عناية طوائف كثيرة من أرباب القلوب بشعره ممن تشرئب نفوسهم الى ما هو أعلى من الحياة ، فتهيم فى حب الله وتجد فى ذلك غذاء للروح وحياة للقلب ولذة صافية لا تخالطها أكدار هذه الحياة المادية المضطربة ، وكيف لا ومحبة الله فى كل دين حق وهى ثمرة العلم به وبكماله وهى روح الايمان وعلامته الكبرى ، وهى فى الوقت نفسـه سـبيل الى ادراك حكمته فى ايجاد الأشياء واجتلاء ما فى صـنعه من آيات الابداع والجمال ، واذا كان ابن الفارض يقول فى محبته لله :

ولى فى الهوى علم تجل صفاته ومن لم يفقهه الهوى فهو فى جهل

فهو يقصد ما تستند اليه محبـة الانسان للخالق المبدع من كمال العلم به وماتثمره للانسان من كمال العلم بما أودعه الله فى المخلوقات من آيات تدل عليه .

وابن الفارض مصرى المولد والنشأة والتربية ، فقد كان أبوه من

أهل مدينة حماه فى الشام ، ولكنه هاجر منهاالى مصر ، فقضى فى مصر بقية حياته • وكان من أهل العلم والورع والفضل ، فاشتغل فى أول الأمر ، بعمل له صلة بالقضاء ، ثم تبوأ منصبا جليلا خطيرا ، فكان نائبا عن الخليفة فى القاهرة ، يباشر مهام الحكم من غير أن يقلل ذلك من عنايته بالعلم ، وأخيرا عرض عليهمنصب قاضى القضاة ، فاعتذر عن قبوله وآثر حياة السكينة والعبادة الى أن مات ، أما ابنه عمر الذى نتحدث عنه فقد ولد فى القاهرة سنة ٥٧٦ هـ فى بيت علم وديانة فى أوائل عصر الأيوبيين بما كان فيه من عناية بعلوم الشرع ومن عناية بالتصوف الصحيح البعيد عن الخلط واتصل عمر بأكابر العلماء من أهل مصر وممن كان يفد اليها ، فتلقى عنهم أنواع العلوم الدينية ، وأخذ عن ابن عساكر وعن الحافظ المنذرى ، ويروى أنه كانت له صلة بالشيخ محيى الدين ابن العربى الصوفى الأندلسى الكبير ، كما يروى أن ابن العربى طلب منه ، وكان قد أظهر قصيدته التائية الكبرى ، المسماة « بنظم السلوك » لما فيها من وصف لعلاقة الانسان بالله ومن بيان أصول السلوك اليه ، أن يكتب لهذه القصيدة شرحا ، فقال ابن الفارض لابن العربى : « كتابك الفتوحات المكية هو شرح لها » •

وقد أحب ابن الفارض سلوك الطريق الى الله منذ وقت مبكر ، وكانت نفسه ، بين الحين والحين تنزع الى العزلة ، فيستأذن أباه فى ذلك ، ويخرج الى واد قريب من جبل المقطم ، فيقضى هناك وقتا فى خلوة من غير أن يطيل الغياب عن والده رفقا بقلبه وتمسكا بواجب البر به • ثم خرج الى الحجاز فأقام فى الحجاز خمسة عشر عاما ، كان فيها يكثر من الخلوة والسياحة فى أودية مكة ، فى مهبط الوحى حيث نفحات النبوة ، وهناك شفت روحه وأضاءت جوانب نفسه ، ثم عاد الى مصر ولكن حياته لم تمتد سوى أربع سنين قضاها فى شوق الى موطن النبوة ، وعبر عنه تعبيرا رقيقا مؤثرا ، فمن ذلك قصيدته التى مطلعها :

أوميض برق بالأبيرق لاحا ... أم في ربى نجد أرى مصباحا

وفيها يقول :

يا راكب الوجناء وقيت الردى ... ان جبت حزنا أو طويت بطاحا
وسلكت نعمان الأراك فعج الى ... واد هناك عهدته فياحا
واقر السلام أهيله عني وقل ... غادرته لجنابكم ملتاحا
قسما بمكة والمقام ومن أتى الـ ... بيت الحرام ملبيا سياحا
ما رنحت ريح الصبا شيح الربى ... الا وأهدت منكم أرواحا

ولم يزل ابن الفارض يعاني هذا الشوق ويصفه في شعر رقيق الى أن انتقل الى جوار ربه سنة ٦٣٢ هـ ، ودفن في القرافة من سفح المقطم ، غير بعيد من الوادي الذي كان يخلو فيه مع الله ، وكان قبره تحت مسجد يعرف بالعارض واليه الاشارة في قول على سبط ابن الفارض :

جز بالقرافة تحت ذيل العارض ... وقل السلام عليك ياابن الفارض
أبرزت فى نظم السلوك عجائبا ... وكشفت عن سر مصون غامض
وشربت من بحر المحبة والولا ... فرويت من بحر محيط فائض

وكان قبره مقصد أهل البر ممن كانوا يطعمون عنده الفقراء ويوزعون الصدقات الى أن رصدت لذلك الأوقاف . وقبره الآن ملاصق لمسجد معروف في ذلك المكان .

لقد كانت حياة ابن الفارض طريفة من النوع الجميل الهادىء ، وهو مع شدة محبته لله لم يهجر الحياة ولم يغفل عن حقائقها فتزوج وأنجب ، وكان له احساس عميق مرهف بكل ما أسبغه الله على الكائنات من آيات الجمال ، ولكن كانت تغلبه أحيانا محبة الخالق فيؤثر أن يخلو الى نفسه ومن يحب ، كما كان يرى جمال الصانع فيما صنع ، وقد فاضت روحه بذلك فيضا يجمع بين البساطة والرقة في العبارة ، والجمال في الصورة ، والادراك لما في آيات الطبيعة

من دلائل عميقة ، والنفوذ الى السر المختبيء وراء الأشياء ، ومن شعره ذلك ما يستحق أن يوضع فى أعلى مكان بين ما تغنت به القلوب المؤمنة بين مختلف أهل الأديان ، وأى شعر أرق وأجمل وأعمق من أبياته هذه ، وهو فيها يبين أولا كيف أنه من أجل حبه لله أصبح يحب كل المحبين :

أهفو الى كل قلب بالغرام له شغل وكل لسان بالهوى لهج
وكل سمع عن اللاحى به صمم وكل جفن الى الاغفاء لم يعج
لا كان وجد به الآماق جامدة ولا غرام به الأشواق لم تهج
عذب بماشئت غيرالبعد عنك تجد أوفى محب بما يرضيك مبتهج
وخذ بقية ما أبقيت من رمق لا خير فى الحب ان أبقى على المهج

ثم يصف كيف أن الأشياء الجميلة تشف أمام عينيه فيرى خالقها من ورائها بكل جارحة من جوارحه :

تراه ان غاب عنى كل جارحة فى كل معنى لطيف رائق بهج
فى نغمة العود والناى الرخيم اذا تألفا بين ألحان من الهزج
وفى مسارح غزلان الخمائل فى برد الأصائل والاصباح فى البلج
وفى مساقط أنداء الغمام على بساط نور من الازهار منتسج
وفى مساحب أذيال النسيم اذا أهدى الى سحيرا أطيب الأرج

ثم يتكلم الشاعر عن حال السائرين الى الله ويشكو ويتوسل :

ليهن ركب سروا ليلا وأنت بهم بسيرهم فى صباح منك منبلج
فليصنع الركب ماشاءوا بأنفسهم هم أهل بدر فلايخشون من حرج
بحق عصيانى اللاحى عليك وما بأضلعى طاعة للوجد من وهج
أنظر الى كبد ذابت عليك جوى ومقلة من نجيع الدمع فى لجج
واعطف على ذل أطماعى بهل وعسى وامنن على بشرح الصدر من حرج

كان ابن الفارض شاعرا صوفيا ، ولكن تصوفه تصوف من النوع السليم المتفق مع الطبيعة المصرية السليمة .

ويكاد بعض شعره فى هذا الباب يكون شرحا للحديث القدسى المشهور : « من آذى لى وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب الى عبدى بأحب الى مما افترضت عليه ، ثم لا يزال العبد يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه » ، ففى هذا المعنى يقول ابن الفارض :

ولا تحسبن الأمر عنى خارجا   فما ساد الا داخل فى عبودتى
ولولاى لم يوجد وجود ولم يكن   شهود ولم تعهد عهود بذمة
فلا حى الا عن حياتى حياته   وطوع مرادى كل نفس مريدة
ولا ناطق غيرى ولا ناظر ولا   سميع سوائى من جميع الخليقة

وقوام تصوف ابن الفارض هو التجرد الحقيقى لسلوك الطريق الى الله وجمع الهمة والعبادة ورياضة النفس ومحبة الله ، ومحبة الله هى عنده علامة الايمان ، وبعض شعره يتضمن معنى من المعانى التى ينتهى اليها الآية الكريمة : « واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ، شهدنا » فالايمان بالله والمحبة له عهد بين الله والانسان ، يقول ابن الفارض :

وعن مذهبى فى الحب مالى مذهب   وان ملت يوما عنه فارقت ملتى
ولو خطرت لى فى سواك ارادة   على خاطرى سهوا قضيت بردتى
لك الحكم فى أمرى فما شئت فاصنع   فلم تك الا فيك لا عنك رغبتى
ومحكم عهد لم يخامره بيننا   تخيل نسخ وهو خير ألية
وأخذك ميثاق الولا حيث لم أبن   بمظهر لبس النفس فى فىء طينتى

وسابق عهد لم يحل مـذ عهدته ولاحق عقد جل عن حـل فتـرة
ومطلـع أنـوار بطلعتـك التى لبهجتها كل البـدور استـترت
لأنت منى قلبى وغـاية بغيتى وأقصى مرادى واختيارى وخيرتى

ومنتهى تصوف ابن الفارض الى التوحيد الكامل الذى يجتمع فيه الشعور الدائم بوجود الواحد الحق تعالى وبرؤية المخلوقات كلها فى مرآة هذا الشعور ، من غير قول بالحلول أو نحوه ، وذلك لأن كل الكائنات انما هى فى الحقيقة آثار وتجليات للخالق المبدع ، ومن هنا أيضا صار ابن الفارض يرى فى كل ما تحركت به قلوب المحبين على اختلافهم وعلى اختلاف مايحبون محبة لله الذى خلق كل شىء وصار هو يحس أنه يحب الله بقلوب جميع المحبين ، يقول الشاعر معبرا عن هذه النظرة :

وصرح باطلاق الجمال ولا تقـل بتقييده ميـلا لزخرف زينـة
فكل مليـح حسنـه من جمالها معار له ، بل حسن كل مليحة
بها قيس لبنى هام بل كل عاشق كمجنـون ليلى أو كثـير عـزة
فكل صبا منهم الى وصف لبسها بصورة حسن لاح فى حسن صورة
وماذاك الا أن بـدت بمظـاهر فظنوا سواها وهى فيهـا تجلت
فكل فتى حب أنا هو وهى حب كل فتى والكل أسـماء لبسـة

تغنى الشعراء المؤمنون بحب الله واشتهر كثير من شعراء الفرس أمثال سعدى وجلال الدين الرومى وفـريد الـدين العطار بتغنيهم بالحب الإلهى ، ولكن شعر ابن الفارض جاء الصورة العليا لذلك ، وهو شعر صادق طويل النفس بعيد عن التكلف لأنه فيض عن قلب ملتهب بالحب ، وقد عاش ابن الفارض ما عاش وهو فى أعلى ذروة من المحبـة لله ، وكان قلبه يهتز من سماع كل ما يعبر عن عاطفة قوية أصيلة ، ومما أجمل أبياته التى نحب أن نختتم بها هذه الكلمة الموجزة فى حبه لله :

لاتحسبونى فى الهـوى متصنعا   كلفى بكم خلـق بغـير تكلـف
أخفيت حبـكم فأخفـانى أسىً   حتى لعمـرى كدت عنى أختفى
وكتمتـه عنى فلـو أبديتـه   لوجدته أخفى من اللطف الخفى
ولقد أقول لمن تحـرش بالهوى   عرضت نفسك للبلا فاستهدف
أنت القتيـل بأى من أحببتـه   فاختر لنفسك فى الهوى من تصطفى

وهل هناك من هو أحق بأن يصطفيه الانسان لقلبه من الله الذى منه هذا الخلق واليه يرجعون .

فهرس

صفحة



الثمن ٧ مـ

دار الجمهورية للطباعة